سورة الأنبياء

مكية وهي مع البسملة مئة وثلاث عشرة آيةً وسبعةُ ركوعات

هذه السورة مكية بلا خلاف. غير أن الإمام السيوطي قد اعتبر آيتها السابعة مَدَنيّة (الإتقان).

أما "ويري" فيقول إنها مما نـــزل في السنة التاسعة من البعثة على ما يبدو، لأنها تتحدث عن معارضة الكفار.

إن دليله هذا يماثل قول شخص بأن سورة الرحمن قد نـــزلت في القرن التاسع عشر الميلادي لأنها تتحدث عن التقاء البحرين الأحمر والأبيض المتوسط، وعن السفن العملاقة الماخرة في البحار، وهي أمور قد وقعت في أواخر هذا القرن!

الحق أن الإنسان إذا أعماه التعصب والخيانة تكلم بمثل هذه السفاسف. كان أمام "ويري" طريق سهل للحكم في تحديد زمن نـــزول هذه السورة، وهو أن يقبل شهادة الصحابة الذين نـــزلت السورة في زمنهم والذين قالوا إنها نـــزلت قبل السنة الخامسة من البعثة النبوية، وأنهم قد حفظوها عندئذ. ولكنه لما كان قد قرر سلفًا أن القرآن ليس وحيًا من الله تعالى تعذَّرَ عليه أن يصدّق أن القرآن الكريم قد بيّن في هذه السورة بعض الأحداث قبل حدوثها كأنباء مستقبلية.

الحق أن السور الكهف ومريم وطه والأنبياء قد نـــزلت في أوائل الإسلام بحسب ما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ، وكان قد حفظها في بداية إسلامه (البخاري: كتاب التفسير). وكان عبد الله بن مسعود ﷺ من المسلمين الأوائل. فلا شك أن هذه السور كلها مما نـــزل في بداية الإسلام. ولما كانت سورة مريم قد قُرئت على النجاشي في بلاطه في بداية الهجرة إلى الحبشة، ولما كانت تلك الهجرة قد بدأت في أول السنة الخامسة، فلا شك أن هذه السور كلها قد نـــزلت خلال

الأعوام الأربعة الأولى من البعثة النبوية. فثبت أن سورة الأنبياء قد نـــزلت قبل بداية السنة الخامسة من البعثة، وأن ما يدعيه "ويري" لغو وباطل تمامًا.

الترتيب والربط: هذه السورة تأتي في المصحف بعد سورة طه. وإن العلاقة القريبة بين هاتين السورتين تكمن في أن الله تعالى قد أخبر في آخر سورة طه أن العذاب نازل على الكفار لا محالة، ولكن بعد إقامة الحجة عليهم. لذا عليكم بالصبر، فإن العذاب نازل حتمًا في موعده بأعداء محمد رسول الله ﷺ. وفي سياق هذا الموضوع نفسه قال الله تعالى في مطلع هذه السورة سورة الأنبياء ﴿اقتربَ للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾. وهذا يعني أن الله تعالى قد أكد هنا ثانية نبأ نـــزول العذاب الذي أدلى به في آخر سورة طه. هذا هو أقرب رابط بين السورتين.

أما علاقة هذه السورة بالسور السابقة العديدة من حيث الموضوع العام فهي أن الله تعالى قد تناول في سورة مريم ذكر المسيح مبينًا أن المسيحيين قد وقعوا في الخطأ بصدد المسيح. فإنهم أوّلاً عزوا إليه الصفات الإلهية، وثانيًا ظنوا أن الشرع قد أُلغي بواسطته، فاعتبروا الشريعة لعنة، وثالثًا قالوا إن النجاة إنما هي بالكفارة لا بالتوبة والعمل الصالح. وإن أخطاءهم هذه انحرفت بهم بعيدًا عن جادة الحق. لقد أبطل الله تعالى دعاواهم هذه في سورة طه من حيث النقل، فذكر أحوال موسى، موضحًا أن الأمة المسيحية إنما هي حلقة من السلسلة الموسوية، وإن وقائع حياة موسى تفند هذه الدعاوى المسيحية كلها. إن أكبر مفخرة لموسى إنما هي أنه قد جاء بالشرع. إذا كان الشرع لعنة فيجب أن يكون موسى موضع كراهة لا فخر.

ثم ذكر الله آدم عليه السلام ليوصل نظرية الخطيئة الموروثة إلى جذرها ويدحضها. ثم بين القرآن الكريم أن الناس ينالون العقاب من عند الله تعالى على آثامهم، فلو كان تجنب الإثم محالاً فأين المجال للعقاب؟ عندها يجب ألا ينـــزل أي عقاب. إن النبي يأتي ليقلل احتمال العقاب بدلاً من أن يؤكده. فلو كان الشرع لعنة فإن النبي لا يقلل احتمال العقاب بل يزيده. وقد أسهبت سورة الأنبياء في بيان هذا الموضوع

نفسه، وبيّنت أنه ليس واحد أو اثنان بل إن أعداء الأنبياء كلهم قد نالوا العقاب بدءًا من زمن آدم ومرورًا بعصر المسيح، وحتى عهد محمد رسول الله ﷺ. فكيف حصل هذا ما دام الإثم موروثًا وما دام الإنسان غير قادر على تجنبه؟ فوجود بعض الأخيار قبل المسيح وتعرُّض البعض الآخر لعقاب الله تعالى لدليل على أن عقيدة الإثم الموروث باطلة تمامًا ولا سند لها.

ملخص محتواها

يقول الله تعالى إن العذاب آت، ولكن هؤلاء يعلّلون أنفسهم بأعذار زائفة شتى. (الآية رقم ٢)

لا تأتي الناسَ رسالة جديدة لهدايتهم إلا وهم يسخرون منها، بمعنى أن الأنبياء كلهم قد دعوا الناس إلى الهدى؛ فإذا كان الإثم شيئًا موروثًا فما الداعي لدعوتهم إلى الهدى.

إن الكفار يعترضون على أنبيائهم من غير تفكير. فيقولون للقوم مثلاً إنه بشر مثلكم – مع أنه لا بد للهادي أن يكون بشرًا مثل الذين يخاطبهم، فهذه الآية أيضًا تبطل الزعم بأن لله تعالى ولدًا – وإنه يتكلم بكلام معسول. فكيف يمكن أن تقعوا في خداعه وأنتم أولو الألباب؟ فيرد نبينا على مطاعنهم بقوله ماذا عسى أن أجيبكم. إن السميع العليم هو الذي سيجيبكم أيما جواب (الآيات ٣–٥).

بعدها يتخذ المنكرون خطوة أخرى فيقولون إن هذا يرى أضغاث أحلام، بل إنه يختلق الكذب والزور، ثم يعرض على الناس كلامه المزور شعرًا ليخدعهم. عليه أن يأتي بالعذاب كما فعل الأولون. فيرد الله عليهم بأن الأنبياء الأولين كلهم كانوا بشرًا، لذا فقد جاءكم هذا من البشر أيضًا. فاقرءوا كتب الأولين إن كنتم لا تعلمون. فكل واحد منهم كان يأكل الطعام، ثم مات في آخر المطاف – وكان المسيح أحدًا منهم – أما الذين كفروا بهم فأهلكناهم. (الآيات ٦– ١٠)

عليهم أن يفكروا فيما إذا كان القرآن يمثّل عبئًا عليهم. كلا، بل إنه مدعاة عز وشرف لهم. (الآية ١١)

إن الذين ينكرون الحقائق التي تنـــزل من عند الله تعالى لا ينالون إلا العذاب. (الآيات ١٢-١٦)

لم لا يفكر هؤلاء أن الله الحكيم ما كان له أن يخلق الكون دونما غاية.. مجرد لعبة. إن صاحب اللعبة يحتفظ بها في يده، ولا يضعها في أيدي الآخرين كما وضع الله تعالى هذا الكون في أيدي الناس!! (الآيات ١٧-١٩)

إن الأرض والسماء في قبضة الله تعالى. وكلما كان الواحد أكثر قربًا من الله تعالى كان أكثر تواضعًا وعبادة لـــه ﷻ. (الآيات ٢٠-٢١)

ما دام في الكون قانون واحد فمن أين جاء هؤلاء بقضية الشرك. إن الشرك يستلزم الاختلاف، وإن الأنبياء كلهم قد علّموا محاربة الشرك؛ فوجود قانون واحد في الكون لبرهان على أن الله تعالى منـــزه عن كل ما يعزى إليه من الأمور الوثنية. (إن المسيحية تعزو الشرك إلى الله تعالى بقولها أنه تعالى لا يمكن أن يغفر الذنوب، فتطلب الأمر فداءً من قبل الابن. ولكن الواقع أن الله تعالى هو المالك الكامل، ولا لوم على المالك الكامل إذا عفا).

ثم يقول القرآن إن المسيحيين يقولون أن هناك آلهة من دون الله تعالى مثل الروح القدس والمسيح. وهذا باطل. إنما هو إله واحد. ولست أنا الوحيد الذي يدعو إلى هذا التعليم، بل إن الأنبياء الذين أتوا قبلي كإبراهيم وإسحاق وموسى كلهم قد دعوا إلى هذا المبدأ نفسه. والكتاب المقدس مليء بهذا التعليم (الآيات ٢٢-٢٥)

في الأزمنة الخالية أيضًا قد جاء البشر من عند الله تعالى لهداية الناس، ولم يأت ابن لله تعالى كما يقال عن المسيح. فكيف يزعم المسيحيون أن الله تعالى قد اتخذ أحدًا من البشر ابنًا لـــه. إنه تعالى أسمى من ذلك، إذ لا تحتاج إلى الأبناء والأولاد إلا الكائنات التي يأتي عليها الفناء. ولكن الله تعالى منـــزه عن كل عيب، ومن المحال أن يقترب منه الفناء، فما حاجته إلى الابن؟ وكذلك يرغب في الولد من يحتاج إلى مساعد، ولكن الله تعالى ليس بحاجة إلى أي مساعد؛ إنه قادر على إدارة أموره كلها بنفسه. إنه تعالى لا يزال منذ البداية يختار بعضًا من عباده ليكرمهم برسالته. وهكذا قد اختار المسيح أيضًا وشرّفه. فمن الظلم العظيم أن يتنكر هؤلاء

لهذه المنة الربانية ويتخذوا عبدًا من عباد الله، الذي أكرمه وشرفه، ابنًا لـــه وبالتالي ندًّا له ﷻ. (الآيات ٢٦-٢٧)

إن سائر الأنبياء الذين أتوا من قبل من عند الله تعالى إنما اعتبروا أنفسهم تابعين لله تعالى، عاملين بأوامره ووصاياه. والحق أن المسيح أيضًا كان مثلهم، ولكن المسيحيين أطروه إطراءً، فأخرجوه من صف الأنبياء الآخرين. والحق أنه ليس إلا واحدًا من عباد الله المختارين. (الآيتان ٢٨-٢٩)

ثم يقول الله تعالى إن مصير المشرك جهنم، فلِمَ تجعلون صلحاءكم من أهل الجحيم بعزوكم صفات الله إليهم. (الغريب أن المسيحيين يؤكدون صراحة، لا إشارةً وتلميحًا، أن من عقيدتهم أن المسيح قد بقي في جهنم ثلاثة أيام بعد أن أُنـــزل عن الصليب. ولكن القرآن الكريم يعلن أن المسيح لم يكن من أهل جهنم، بل كان عبد الله المختار المغفور لـــه. واعتبار مثل هذا العبد المختار من أهل جهنم ولو لثلاث ثوان - دعك من ثلاثة أيام - لظلم عظيم). (الآية ٣٠)

إن من سنة الله تعالى أنه كلما تصبح الدنيا محرومة من الروحانية.. يفتح أبواب رحمته من السماء، فيقوم الخير في الدنيا ثانية نتيجة الماء الرباني، فيولَد في الجماعة الربانية رجال روحانيون عظام يستمر الخير من خلالهم. ويدار هذا النظام بعون الله تعالى. إن الليل والنهار يتناوبان على الدنيا، فتشرق الشمس تارة، وينير القمر تارة أخرى. وهذا هو حال العالم الروحاني أيضًا؛ فلا يبقى فيه الخير دائمًا، ولا يختفي الشر على الدوام. فمن الخطأ أن يستنتج أحد برؤية تناوب الخير والشر وتعاقب النور والظلام أن خطة خلق الكون صارت فاشلة. كلا، بل إنها عملية طبيعية، وإن العالم المادي أيضًا يدار بحسبها؛ فما الداعي للاعتراض، وما المبرر لاختراع العقائد الزائفة مثل الكفارة وغيرها. (علمًا أن عقائدهم الزائفة هذه إنما هي راجعة إلى ظنهم أن عملية بعث الرسل فشلت في إصلاح العالم. وذلك بالرغم أن الدنيا ظلت على حالها بعد المسيح أيضًا، فلا الخير زاد، ولا الشر نقص). (الآيات ٣١-٣٤)

إن الأنبياء كلهم قد ماتوا، وأن المسيح هو الآخر قد مات، وأن محمدًا رسول الله (ﷺ) أيضًا صائر إلى الموت، ولكن هذا لا يقدح في النظام الروحاني، كما أن

مغيب الشمس لا يفسد النظام المادي. إن لكل واحد عمله، يقوم به ويرحل. إن البقاء الحقيقي المستمر في العالم كله إنما هو لذات البارئ وحده ﷻ. (الآيتان ٣٥-٣٦)

إن الأعداء يستهزئون بك، يقولون إنه يقوم بهذا الادعاء الكبير رغم كونه بشرًا. مع أن القضية لا تخص بمن أتى بهذا الكلام، وإنما تخص بمن أرسلك بهذا الكلام. إنه تعالى لقادر على البطش بهم بعد الموت أيضًا، وسيبطش بهم.(الآية ٣٧)

إن الله تعالى بطيء في العذاب مما يجعل الناس مغرورين، مع أن إمارات العذاب بدأت تلوح في الأفق، ولا بد من غلبة الإسلام. (٣٨-٤٥)

إن ما أقوله إنما أقوله بناء على الوحي. إن العذاب آت لا محالة، وعندها سيندمون. ولكن الله تعالى لن يظلم في العذاب أيضًا، بل يعامل كل واحد وفق أعماله. (الآيات ٤٦-٤٨)

ولقد جاء موسى قبل هذا الرسول، وقد دعا الناس إلى النجاة. (فإذا كانت النجاة أمرًا محالاً فلم دعاهم إليها). (٤٩-٥٠)

ولكن هذا الذكر أكملُ مما كان قبله. إنه جامع لكل التعاليم العالية. (الآية ٥٠)

لقد جاء قبل موسى إبراهيم الذي ينسب إليه المسيح جماعته. ولكن إبراهيم قد نهى الناس عن الشرك مقرًّا بأن الله هو خالق الأرض والسماء (ولم يقل أن الكون خُلق من الكلمة أي المسيح). وإن خطأ المشركين ثابت بدليل أن الأصنام عرضة للضرر والأذى (مثلما تضرر المسيح وعُلّق على الصليب). (٥٢-٧١)

لقد اصطفينا إبراهيم وأورثناه إحدى البلاد، وقد آمن به أناس بمرتبة لوط، ووهبنا لـــه ولدًا كإسحاق وحفيدًا كيعقوب. وكل هؤلاء كانوا أبرارًا صالحين. (أي ما كانت هناك حاجة إلى الكفّارة. فبحسب الكفارة يجب أن يُعَدّ كل مسيحي أفضل من إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى، إذ قد نال من خلال الكفّارة النجاةَ التي لم يحظ بها أي من هؤلاء). (الآيات ٧٢- ٧٦)

ثم انظروا إلى نوح. نجّيناه وأهلكنا أعداءه. فإذا كان الإثم موروثًا فلم أُهلك هؤلاء القوم؟ (الآيتان ٧٧-٧٨)

وكذلك منحنا داود وسليمان مكانة عالية. فكيف، يا ترى، تبوّءا هذا المقام من دون الكفارة؟ علمًا أن المسيحيين يوصلون نسب المسيح بداود عليهما السلام ومن أجل ذلك قد ذكره الله تعالى هنا خاصة. (الآيات ٧٩-٨٣)

ثم انظروا إلى أيوب الذي قد نفعته عبادته. كانت مصائبه أشد من مصائب المسيح، فإذا كان تحمل الأذى في سبيل الله تعالى شيئًا نافعًا فكان من المفروض أن يكون أيوب أفضل من المسيح. ثم إن إسماعيل وإدريس وذا الكفل كلهم قد ضحوا في سبيل الله تعالى. إذًا فلِمَ تُمنَح درجة بنوّة الله تعالى لصابر واحد فقط؟ (الآيات ٨٤-٨٧)

ثم هناك ذو النون الذي ذكر المسيح مشابهته به. إنه هو الآخر قد تحمل كثيرًا من الأذى. فلِم لم يُعتبر هو كفارة عن ذنوب الناس؟ (٨٨-٨٩)

ثم انظروا إلى زكريا وابنه. كان زكريا قائمًا على البر والصلاح، كما كان ابنه بارًّا وشهيدًا في سبيل الله تعالى بحسب الإنجيل. فلم لم يتسببا في الكفارة؟

ثم جاءت بعدهما مريم وابنها. لا شك أن ذكرهما سيشاع في العالم، ولكن لم يكن حالهما مختلفًا عن هؤلاء الأولين. إذا كانت ولادة المسيح غير عادية فإن ميلاد يحيى غير عادي كذلك. (وقد ذكر الله تعالى مع أحدهما أباه مؤكدًا أنه تعالى قد شفى زوجته من المرض، وذكر مع الآخر أمه، وكل ذلك للتأكيد على كونهما ضعيفين. فقال تعالى ما دام كلا النبيّين من الصالحين، وما دام كلاهما قد تحملا الشدائد، فلم لم يُعتبر يحيى كفارة عن ذنوب الناس؟) (الآيات ٩٠- ٩٢)

ثم يقول الله تعالى إن هؤلاء القوم كلهم كانوا ذوي كفاءات مماثلة، وتابعين لقانون واحد، وداعين الناس إليّ، فلا تتبعوا الآن مسلكًا جديدًا آخر. (الآية ٩٣)

ولكن الغريب أن الناس يميلون إلى الفُرقة، تاركين الطريق المجرب المطروق. مع أن سنتنا واحدة، فمن كان صالحًا عومل معاملة حسنة (الآيتان ٩٤-٩٥)

إن سنتنا أنه إذا هلكت أمة فلا تعطى فرصة للنهوض ثانية، ولكن سيحصل العكس في زمن يأجوج ومأجوج - الذين يكونون مسيحيين والذين يدور الحديث عنهم هنا - فإن هؤلاء عندما يستولون على العالم من كل جهة، عندها سيجري

في الدنيا تيار جديد، فيحل عليهم العذاب، ويدمَّر كل ما كانوا به مغرورين. يومئذ يُنقَذ المؤمنون من العذاب، بينما نطوي بساط نظام الكفر، ثم بعد ذلك يملك المؤمنون أرض فلسطين مرة أخرى. (٩٦-١٠٧)

إنك يا محمد (ﷺ) جئت رحمة للعالمين، لكي تنجيهم من لعنة الكفارة وتفتح عليهم باب التوبة. فأعلنِ التوحيدَ، وأنذرِ المنكرين. واعلم أن قومك أيضًا سيُطردون من فلسطين، فعليك أن تدعو من الآن وتقول ربِّ إن هذا الأمر سيجعل أمر الإسلام واليهودية مشتبهًا فيه، فاحكُمْ بما يكشف صدق الإسلام، واجعَلِ المسلمين غالبين على تلك الأرض ثانية. (الآيات ١٠٨- ١١٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

اقترب: اقترب الوعد: قرُب (الأقرب).

التفسير: يرى الكتّاب الغربيون أن سورة الأنبياء نـــزلت في السنة التاسعة من البعثة النبوية. أما المفسرون المسلمون فقالوا إنها مكية إذ ليس عندهم عادة أن يتكلموا جزافًا. ولو سلمنا بدعوى المستشرقين بأنها نـــزلت في السنة التاسعة أو العاشرة فهذا يعني أن آية ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ تضمنت الإشارة إلى أن موعد هجرة المسلمين من مكة قد اقترب مما سيؤدي إلى هلاك أهل مكة. كما أنها تُعتبر بشارةً بانتشار الإسلام في المدينة حيث وُضع الأساس لانتصار محمد رسول الله ﷺ. أليس من الغريب أن هؤلاء المستشرقين المسيحيين، وهم مشهورون بدهائهم ومكرهم، قد وقعوا هنا في فخ نصبوه بأنفسهم، حيث حددوا لنـــزول هذه السورة زمنًا قريبًا من زمن الهجرة وانتشار الإسلام في المدينة، وهكذا اعترفوا بأن القرآن الكريم كتاب سماوي احتوى على أنباء غيبية هامة. وطبقًا لتلك

الأنباء غلبت فئة قليلة على بلاد العرب الشاسعة في بضع سنين، حتى فُتحت على يدها مكة تلك المدينة التي لم تكن قد فُتحت قط على يد أحد منذ بداية الكون.

وفي قولـــه تعالى ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ تحذير بأن العذاب قادم. وهنا ينشأ سؤال: كيف يؤسف على شخص لم يؤمن بعد بهذا الوحي، فيقال إنه واقع في غفلته؟ فهو لا بد أن يضحك لدى سماع هذا الكلام.

فليكن معلومًا أن لفظ ﴿اقترب﴾ يدل على ظهور الآثار الأولى للعذاب، ولذلك يقول الله تعالى يجب على هؤلاء المنكرين أن يفكروا على الأقل ما هو طريق النجاة من هذا العذاب، ولماذا تظهر آثار هذا العذاب، إذ لا بد أن يكون وراءه سبب ما. ولكنهم لا يكترثون لذلك ولا يفكرون في ذلك مطلقًا، فثبت أنهم في غفلة.

وهذا ما يحدث في هذا العصر أيضًا. إن آثار العذاب تظهر واحدًا تلو الآخر، ولا أحد يحظى بالسكينة والاطمئنان، ومع ذلك لا يفكر أحد في سبب ذلك، ولا ينظر مطلقًا إلى المصدر الحقيقي للفتن والفساد، وإنما يريدون فقط أن يزول الأذى أو العائق من أمامهم بطريق ما. والنتيجة أنهم يغوصون في وحل العذاب أكثر فأكثر. ولن يتغير هذا الوضع ما لم يسعوا لإغلاق المصدر الأصلي للمصائب.

مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٣

شرح الكلمات:

ذِكر: الذِّكر: التلفظ بالشيء؛ إحضارُه في الذهن بحيث لا يغيب عنه؛ الصيتُ؛ الشرفُ، وفي القرآن ﴿إنه لَذكرٌ لك ولقومك﴾؛ الكتابُ فيه تفصيل الدين ووضعُ الملل. والذِّكر من القول: الصُّلبُ المتينُ (الأقرب).

مُحدَث: المحدَث: نقيضُ القديم (الأقرب).

يلعَبون: لعب في الأمر والدين: استخفّ به (الأقرب).

لاهيةً: لَهِيَ عنه: سلا وغفَل وترَك ذكرَه وأعرضَ عنه (الأقرب).

النجوى: الاسمُ من المناجاة؛ والسرُّ (الأقرب).

السحر: كلُّ ما لطُف مأخذُه ودَقَّ؛ الفسادُ؛ إخراجُ الباطل في صورة الحق. "وإن من البيان لسحرًا" قيل معناه أنه يمدح الإنسانَ فيصدُق فيه حتى يصرف قلوب السامعين إليه، ويذمّه فيصدُق فيه حتى يصرف قلوبَهم أيضًا عنه (الأقرب).

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن استخفاف أهل مكة بالقرآن واستهزاءهم بالإسلام ليس ببدع، إذ ما زال الكافرون في كل زمان ومكان يعارضون كل وحي جديد من الله تعالى، ولم تتجه قلوبهم لدى سماعه إلى الله تعالى، بل لم ينفكوا ساخرين محتقرين، ولم يبرح كبراء الكفار يخططون لمحو رسالة الله تعالى. لم يخطر ببالهم قط أنه كلام الله تعالى وأننا بشر، وإنما ظلوا يعزون الوحي إلى البشر. قالوا إنه شخص واحد، وإنا لأمة كبيرة، فأنى لـــه أن ينفلت من أيدينا. وكانوا ينصحون قومهم قائلين: لا تصغوا لتعليمه، ولا تنخدعوا بكلامه المعسول. إنكم أمة كبيرة، وهو وحيد، فأنتم الغالبون في نهاية المطاف.

ثم يقول الله تعالى ﴿لاهيةً قلوبُهم وأسرّوا النجوى﴾. واعلم أن النجوى هو الكلام في السر، ومع ذلك قال الله تعالى ﴿وأسروا النجوى﴾ وذلك للمبالغة.. أي أنهم ينسجون مؤامرات جد خفية يستحيل أن يطلع عليها عامة الناس.

ثم يقول هؤلاء للقوم ﴿هل هذا إلا بشرٌ مثلكم أفتأتون السحرَ وأنتم تبصرون﴾.. أي رغم أنه بشر مثلكم تسمعون كلامه الذي هو سحر وتقبلونه، مع أنكم تعلمون أنه ليس إلا كلامًا مزخرفًا فحسب.

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾

التفسير: يؤكد الله تعالى هنا أنه كان يعلم سلفًا نوايا الكفار بأنهم سيقومون بالخطط الخفية، ثم يقومون بالدعاية الباطلة لتضليل الناس، ولذلك فإنه قد أودع

مسبقًا في وحيه وفي القلوب البشرية الردّ على كيدهم. إنهم يظنون أن الرسل بشر فحسب، ولكنهم لا يدرون أن وراء الرسل ربًّا يسمع الدعاء ويعلم الغيب. لذا فسواء تآمروا ضد رسلهم نهارًا أو ليلاً، وسواء أعلنوا مكائدهم أو أسرّوها، فإن الله تعالى سيحبطها كليًا.

بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

أضغاث أحلام: الأضغاث مفردها الضغث وهو قبضة حشيشٍ مختلطة الرطْب باليابس. الضغث من الأمر أو الخبر: ما كان مختلطًا لا حقيقة لـــه. (الأقرب).

والأحلام جمع الحلم وهو ما يراه النائم في نومه، لكنه قد غلب على ما يراه من الشر والقبيح (الأقرب).

فأضغاث أحلام: أحلامٌ ملتبسة لا يصح تأويلها لاختلاطها (الأقرب).

شاعر: الشاعر هو قائل الشعرِ؛ وأيضًا يُطلقَ الشاعر على كل من يتلاعب مع الشعور الإنساني أي المشاعر (الأقرب).

التفسير: لا يستطيع الكافرون الرد على الوحي بالأدلة والبراهين، وإنما يقولون تهدئة لأتباعهم: ألا ترون أنتم في بعض الأحيان أحلامًا ملتبسة، فما الغرابة إذا كان هذا المدعي هو الآخر قد رآها. ألا تكذبون أنتم أحيانًا، فما الغرابة إذا كان هو أيضًا قد كذب؟ ألا تتكلمون أحيانًا عند الحاجة كلامًا لإثارة مشاعر القوم، فما العجب إذا كان هو الآخر يستثير عواطف القوم بكلامه.

أو المعنى أنهم يتهمونه أولاً بأنه قد رأى بعض الأحلام الملتبسة، ولكنهم يفكرون بعد ذلك أن كلامهم هذا يؤكد كونه شخصًا صادقًا في حد ذاته وإن كان قد رأى بعض الأحلام المشوشة؛ فيعودون ويقولون إنه مفتر. ولكنهم يفكرون بعد ذلك أن

اتهامهم هذا كبير جدًا فكيف يصدقهم الناس فيما يقولونه ضد شخص صادق القول، فيقولون بل هو يسخر بنا كالشعراء.

وبما أن الوحي الذي نـــزل على رسول الله ﷺ لا يوجد فيه حتى بيت شعر واحد، بل إن القرآن الكريم نفسه يعلن ويقول ﴿وما هو بقولِ شاعرٍ﴾، لذا يجب ألا يغيبن عن البال أنه عندما يرِد لفظ الشاعر عن القرآن أو الأنبياء السابقين فلا يراد به الشاعر بالمعنى المعروف، وإنما يراد به إنسان يتلاعب بمشاعر الناس. إن سيدنا مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام أيضًا كان يقرض الشعر أحيانًا، ولكنه لا يمكن أن يسمى شاعرًا. فقد أعلن عليه السلام نفسه في بيت شعر له تعريبه:

لا علاقة لنا بالشعر ولا بالشعراء، وإنما ننظم الكلام لعل أحدًا يفهم بهذا الأسلوب (قاديان كے آريا اور هم ص ٤٥٩).

لا تزال جريدة "زميندار" تستهزئ منذ أربعين سنة بمؤسس الجماعة قائلة بأنه يقول الشعر، ولكن شعره خال من البلاغة والفصاحة (جريدة زميندار عدد ٤ مارس ١٩٣٣). فهذه الجريدة المسكينة كانت تظن أنها تطعن بذلك في مؤسس الجماعة، مع أنها هيأتْ بذلك الدليل على أن حضرته عليه السلام لا يمكن أن يسمى شاعرًا رغم كون بعض كلامه موزونًا؛ وبالتالي لا اعتراض على كونه ملهَمًا من عند الله تعالى.

أما قوله تعالى ﴿فَلْيأتنا بآية كما أُرسلَ الأوّلون﴾ فقد بين الله فيه أن الكافرين يكذّبون آباءهم بأنفسهم. ذلك أن تاريخ العصور الخالية يكشف لنا أن قوم كل نبي اتهموه بأنه لم يأت بآية، ثم جاء أولادهم في زمن محمد رسول الله ﷺ وكذبوا آباءهم إذ قالوا إن الرسل الأولين قد أتوا بالآيات، أما محمد فلم يأت بآية.

فانظر إلى قوة مكر الله تعالى. فكأن الملائكة كانت تضحك على أعداء الأنبياء السابقين حينما كانوا يطالبون بالآيات، فكانت تقول لـــهم مهلاً فسترون أن أولادكم وأحفادكم سيعدّونكم كاذبين. وقد تحقق ذلك في الظاهر أيضًا، فإن الأنبياء الذين قالت لهم أممهم إنكم لم تأتوا بآية عندما ماتوا نسبتْ إليهم أممهم المهازل. فبعضهم قالوا إنهم كانوا يحيون الموتى حقيقة، كما فعلت أُمّة المسيح عليه السلام (لوقا ٧: ١١-١٥)، وبعضهم قالوا إن الأماكن المقدسة كانت تتحرك حيثما توجهت

قدمًا زعيمهم، كما يقول السيخ عن زعيمهم "بابا نانك" حيث يقولون أنه لما ذهب إلى مكة كانت الكعبة تتحرك لتكون إزاء قدميه (واران بهائي غورداس جي (مترجم) طبعة ١٩٨٩ ص ٣٨-٣٩، وجنم ساكهي (أردو) ص ١٤٩)! فهذه هي المهازل التي وقع أولادهم فريسة لها. فكان مرادهم من قولهم ﴿فَلْيأتِنا بآية كما أُرسلَ الأوّلون﴾ أن يأتي هذا الرسول بآية مشابهة للخرافات التي نسجها الأولون حول معجزات رسلهم. مع أن أولئك الرسل كانوا رسل الله، ولم يكونوا رسل هؤلاء الكافرين، والله تعالى لا يخالف سنته. متى رأيتم ملِكًا من الملوك يبلغ به حمقه أن يخالف القانون الذي سنّه بنفسه؟

مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٦

شرح الكلمات:

قرية: القرية هي المصر الجامع؛ وقيل كل مكان اتصلت به الأبنية واتُّخذ قرارًا (الأقرب). والمراد من القرية هنا أهلها.

التفسير: يقول الله تعالى: متى آمن الأمم السالفة حين حان هلاكها؟ فأنى لهؤلاء القوم أن يؤمنوا وقد اقترب عذابهم؟

لقد بين القرآن الكريم في مكان آخر أنه لم تكن هناك أمة رأت آثار العذاب فرجعت إلى الله تعالى وآمنت برسولها، إلا قوم يونس، فإنهم لما رأوا آثار العذاب آمنوا، فمتَّعهم الله ببركاته. قال الله تعالى ﴿فلولا كانت قريةٌ آمنتْ فنفَعها إيمانُها إلا قومَ يونس لما آمنوا كشفْنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتّعناهم إلى حين﴾(يونس: ٩٩). إن كلمات القرآن هذه تبين بجلاء أن الله تعالى لا يحكي هنا قصة من الماضي، بل يعبّر عن أمنيته أن يا ليت كانت هناك أممٌ أخرى تؤمن فتنجو مثل قوم يونس. وهذا يعني أن باب التوبة من عند الله تعالى يبقى مفتوحًا على مصراعيه على الدوام لأجل بني آدم. وبالفعل نرى أنه كما آمن قوم يونس فنجوا، كذلك آمن قوم الرسول ﷺ أيضًا به بعد العذاب، ومتّعهم الله تعالى ببركاته. عندما

اضطُر أهل مكة بعد صلح الحديبية للإذعان لمحمد رسول الله ﷺ في غاية الذل والهوان، وحين أسلم أناس مثل خالد وعمرو بن العاص الذين فتحوا العالم من أجل الإسلام، وحين دخل مكةَ جيش جرار من المسلمين، وأطاح بحكومتها، فحتى هند، تلك المرأة الشهيرة بعداوتها الشرسة للإسلام، أسلمت أيضًا، كما أسلم عكرمة بن أبي جهل أيضًا. إذًا فإن رسولنا الكريم ﷺ هو الوحيد، بعد يونس عليه السلام، الذي حل بقومه العذاب، ومع ذلك آمنوا. ولم يكن هذا إلا ببركة النبي ﷺ، إذ لم تتح هذه الفرصة للمسيح ولا لغيره من الأنبياء. إنما قُدّر ذلك ليونس عليه السلام بين الأنبياء الأولين، ولمحمد رسول الله بين الأنبياء الآخرين. صلى الله عليه وآله وسلم.

أما قوله تعالى ﴿أفهم يؤمنون﴾ فليس معناه أنهم لن يؤمنوا، إذ إنهم كانوا قد آمنوا فعلاً. إنما هذا التعبير يمثّل ردًّا على أفكار القوم، حيث بين الله تعالى أنهم ما كانوا ليؤمنوا، بالنظر إلى معايير العقل والمنطق. ذلك لأن أمة ارتكبت الظلم والعدوان لهذه الدرجة حينما تصير مغلوبة فلا تبقى عندها فرصة الإيمان، وإنما تُقتل رجالها مثلما أُمر موسى عليه السلام بأن يعامل أعداءه الكنعانيين (التثنية ٢٠: ١٤). إنما هو محمد رسول الله ﷺ صاحب الشمائل الحميدة الذي حين انتصر على أهل مكة الظالمين قال لا تثريب عليكم اليوم، لقد عفونا عنكم، وذلك خلافًا لما فعل موسى وغيره من الأنبياء السابقين. حتى إن عكرمة بن أبي جهل الذي كان قد هرب من مكة إلى الحبشة، لما رجع نتيجة إلحاح زوجته وإصرارها عليه بالرجوع، قال لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن زوجتي تقول إنك قد عفوت عني أيضًا، وأنك قد سمحت لي بالبقاء في مكة. فهل هذا صحيح؟ فقال النبي ﷺ: نعم، هذا صحيح. فقال عكرمة: شكرًا، ولكني لن أغيّر ديني. فهل يمكنني البقاء في دولتك وأنا على ديني؟ فقال ﷺ: نعم. عندها لم يتمالك عكرمة نفسه وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله (زاد المعاد، باب فتح مكة).

كان عكرمة جاهلاً بالحقيقة. لقد ظن أنه ﷺ قد عفا عنه بصفته رسول الله فحسب. مع أن موسى عليه السلام أيضًا كان رسول الله، ولكنه قتل أعداءه المغلوبين رجالاً ونساء أجمعين. فكان حريًّا بعكرمة أن يقول أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد

أنك، يا محمد، لست محمدًا بالاسم فحسب، وإنما أنت محمد ذاك الذي قد بشر الأنبياء جميعًا بمجيئه، والذي قد تغنّى الرسل كلهم برحمته.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٨

التفسير: لقد أخبر الله تعالى هنا أن الرسل قبلك أيضًا كانوا بشرًا كاملي القوى، والفرق الوحيد بينهم وبين غيرهم من شرفاء قومهم هو أن الله كان يوحي إليهم.

لقد سمى الله هنا الأنبياء الآخرين أيضًا رجالاً أي أناسًا ذوي قوى كاملة، ولم يصفهم بذلك مقارنةً بمحمد رسول الله ﷺ، بل مقارنة بأناس آخرين من قومهم، فإن كل نبي يكون أشرف قومه وأفضلهم.

ثم يقول الله تعالى ﴿فسْئلوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.. أي لقد كان قبلكم أهل الكتاب، فاسئلوهم هل جاءهم رسل بشر أم رسل آلهةٌ؟

الحق أن هذه الآية جاءت إفحامًا لمن يقول ﴿هل هذا إلا بشرٌ مثلُكم﴾، فكيف تصدّقون بما يقول لكم؟ يقول الله تعالى لم نرسل قبلك لهداية الناس إلا رجالاً كنا نوحي إليهم. فسئلوا اليهود والنصارى إن كنتم لا تعلمون. ذلك لأن معارضي النبي ﷺ كانوا مؤمنين بنبوة إبراهيم عليه السلام وصلاحه على الأقل. فإذا كان إبراهيم رسولاً بشرًا، فلم يعترضون الآن على مجيء رسول بشر؟

إن فائدة مثل الجواب الإفحامي تكمن في أن المعترض لا يتعصب ضد أمر هو مقرٌّ به، ويكون بحوزته أدلة على صحة ذلك الأمر. فعوضًا عن أن نسوق الأدلة على ما اعترض عليه، من الأسهل أن نعرض عليه شيئًا مما هو مسلّم به عنده، لكي يعرف صدق ما يعترض عليه بمساعدة الأدلة التي هو يملكها على صدق ما يسلّم به. وهذا هو الأسلوب الذي اتبعه الله تعالى هنا، فبدلاً من أن يدلل الله على أن

النبي لا بد له من أن يكون بشرًا، اكتفى الله بقوله إن الرسل السابقين الذين تؤمنون بهم كانوا هم الآخرون بشرًا، فلِم صدقتموهم؟

وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

جسدًا: الجسد: جسمُ الإنسان؛ وكلُّ خَلْق لا يأكل ولا يشرب مِن نحوِ الجنِّ والملائكةِ (الأقرب).

التفسير: يجب أن لا ينخدع هنا أحد فيقول إن أمة عيسى عليه السلام تؤمن بأنه ابن الله، أو أن قوم رام أو كرشنا يعدّونهما إلهين، فلمْ يكونا بشرًا برأيهم. ذلك أنهم سواء اعتبروهم ابن الله أو آلهة فإنهم لا يمكن أن ينكروا أن كل واحد منهم قد وُلد من بطن امرأة، وأنه كان لـــه جسد إنسان، وأنه لم يكن أسمى من الأكل والشرب والموت. إن هذا الإقرار منهم يثبت أنهم كانوا يؤمنون بكونه بشرًا في الحقيقة. وبالفعل ترون أن التوحيد قد وجّه من خلال الإسلام لهذه العقائد الوثنية ضربة قوية حتى أخذ الهندوس والنصارى هم الآخرون يقولون نحن أيضًا نؤمن بالتوحيد.

ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

مسرفين: أسرف في كذا: جاوزَ الحدَّ؛ أخطأَ؛ جهِل؛ غفَل فهو مسرف (الأقرب). فالمسرفون: هم المتجاوزون الحدود، المخطئون، الجاهلون.

التفسير: أي لا شك أن هؤلاء الأنبياء قد عوملوا من قبل الله تعالى معاملة غير عادية، ولكن لم يكن ذلك إلا في الأمور التي تتعلق بالوحي؛ أما في الأمور الطبيعية الأخرى فكانوا كغيرهم من البشر تمامًا.

لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

ذِكرُكم: الذكر: الشرف (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن الوحي يَنـــزل رحمةً، لا لعنةً كما يزعم النصارى (الرسالة إلى أهل غلاطية ٣: ١٣). فمثلاً يحتوي القرآن الكريم على ذلك التعليم الذي إذا عملت به نلت شرفًا كبيرًا. وعلى سبيل المثال، يعلّمك القرآن أن تصدق القول دائمًا، وتفي بالوعد، وأن لا تسرق، ولا تظلم. كما يوصيك القرآن أنه إذا كان لديك مال فأنفقْه على الفقراء أيضًا، وليس على نفسك فقط، بيد أنه لا بد لك من الإنفاق على أهلك قدر المستطاع. ويأمر القرآن الكريم أنه إذا اقتتلت حكومتان فأصلحوا بينهما، دون أن تستغلّوا هذا التصالح بينهما لصالحكم. وعليكم بتوخّي العدل في معاملاتكم. وأَحسِنوا إلى زوجاتكم وخدمكم. وأدّوا الأجيرَ أجره. وتَفقّدوا حال المسافرين. وادفعوا عن المديونين ديونهم. وفُكّوا رقاب العبيد. واعتنوا بخلق الله الذي لا يقدر على السؤال لعدم قدرته على النطق أو لكرهه السؤال. واعفوا عن الظالم ما دام العفو يؤدي إلى إصلاحه، أما إذا زاده العفو شرًّا فلا تعفوا عنه. فهل العمل بهذا التعليم الرائع يزيد المرء شرفًا أم ذُلاً؟ إذا كان العمل بمثل هذا التعليم لعنة فلا شك أن المسيحيين على حق، أما إذا كان مدعاة للعز والشرف فلا شك أن القرآن على الحق، وأن المسيحية التي تعدّ الشرع لعنة هي على الباطل.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

قصمْنا: قصَم الشيءَ: كسَره وأبانَه. وقصَمه اللهُ: أهانه وأذلَّه (الأقرب).

﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمةً﴾.. أي حطَمْناها وهشَمْناها، وذلك عبارة عن الهلاك (المفردات).

بأْسنا: البأس: العذاب؛ الشدّة في الحرب (الأقرب).

يركُضون: ركَض : حرّك رجلَه. وركَض منه: هرَب مسرعًا (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه لا يزال يجري في الدنيا تياران من الخير والشر. إن الناس يفسدون بعد فترة، فيصلحهم الله تعالى، وحينما يهيئ ﷻ أسباب الإصلاح فإن المفسدين يتصدون للمصلحين ويقاومون، ثم يفرّون من وجوههم.

أما قوله تعالى ﴿وكم قصَمْنا مِن قرية كانت ظالمة﴾ فاعلم أن الظالم هنا يعني من يستخدم حقوقه وطاقاته في غير محلها؛ أو من لا يعزو الحقيقة إلى صاحبها، أو يعزو إلى أحد ما ليس فيه. والحق أن هذا هو السبب الأساسي لنشوء السيئات كلها في العالم. فلو أننا استخدمنا قوتنا في محلها لكانت النتائج طيبة دائمًا. إنما يضرنا ما يُستخدم في غير محله. فالله يقول عن القرى التي صار أهلها ظالمين باستخدامهم قواهم في غير محلها، إننا أهلكناهم وأقمنا بعدهم قومًا آخرين.

لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

أُترفتم: أترفَت النعمةُ زيدًا: نعّمتْه. وأترفتْه النعمةُ: أطغتْه وأبطرتْه (الأقرب).

والترفُّه: التوسع في النعمة (المفردات). فالمراد من قوله تعالى ﴿وارجِعوا إلى ما أُترفتم فيه﴾ أي عودوا إلى الأشياء التي كنتم تعيشون فيها عيشة راحة ورخاء.

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن المجرمين يقرّون بخطئهم أخيرًا، ولكن صلاحهم هذا يبقى حتى نهاية العقاب، حيث يعودون إلى فسادهم بعد ذلك ثانية.

فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

حصيدًا: الحصيد: الزرع المحصود (الأقرب).

خامدين: خَمَدت النارُ: سكَن لَهَبُها. وفي القرآن: ﴿حتى جعلناهم حصيدًا خامدين﴾ أي لا يُسمع لهم حِسٌّ، أو مَوتَى (الأقرب).

التفسير: يخبرنا الله تعالى أننا استأصلنا هؤلاء القوم حتى صاروا كنار خامدة.. أي لم تبق فيهم القدرة على النماء والازدهار، وماتت أمانيهم، وانمحت رغبتهم في التقدم والترقي. ذلك مآل القوم الذين يحل بهم عذاب الله تعالى.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

لاعبين: لعِب الرجلُ: ضدُّ جَدَّ ومزَح، أو فعَل فعلاً بقصد اللذة أو التنـــزه (الأقرب).

التفسير: يلفت الله تعالى أنظارنا هنا إلى خلق السماء والأرض، ويقول تدبروا في خلقهما، وستجدون أننا لم نخلقهما من غير حكمة. فكيف يمكن إذًا أن نخلق الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات دونما حكمة، لكي يأكل ويشرب ثم يموت.

لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

نقذف: قذَف به: رمى به، يقال "هُمْ بين حاذفٍ وقاذفٍ" أي ضاربٍ بالعصا ورامٍ بالحجارة (الأقرب).

فالمراد من قوله تعالى ﴿بل نقذِف بالحق على الباطل﴾ أننا نرمي بالحق على الباطل كما يرمى أحد بالحجارة.

فيدمُغه: دمَغه: شجَّه حتى بلغت الشجّةُ دماغَه. دمَغ الحقُّ الباطلَ: أبطلَه ومحَقه (الأقرب).

التفسير: يقول المفسرون أن معنى هذه الآية هو أننا لو خلقنا هذه الأشياء من أجل اللعب لاحتفظنا به عندنا، لأن الإنسان يحتفظ بلعبته عنده. كذلك يقولون أن اللهو هنا بمعنى الولد والمعنى أننا لو اتخذنا ولدًا لاتخذناه من جنسنا، وليس من جنس الإنسان. بينما قال البعض الآخر أن اللهو هنا يعني العلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة، والمعنى أننا لو أردنا أن ننشئ مثل هذه العلاقة لأنشأنا مع جنس مماثل لنا، وليس مع جنس الإنسان. (البغوي).

ولكني أرى، نظرًا إلى قوله تعالى ﴿بل نقذِف بالحق على الباطل فيدمَغه فإذا هو زاهقٌ﴾، أن لا علاقة للولد والعلاقة الجنسية بالسياق، إلا أن معنى اللعبة صحيح، والمراد أننا لو كنا نريد اللعب لاحتفظنا بهذه اللعبة عندنا، ولم نضعه في أيدي الآخرين.

ولكن هذه الآية يمكن أن تفسَّر بمعنى آخر، وهو: هل أنشأنا هذه المصنعة الكونية، التي ينتفع بها الناس منافع شتى، على سبيل السخرية والهزل؟ لو كان هذا صحيحًا لكنا ساخرين بأنفسنا. ولكن لا أحد من العقلاء يسخر بنفسه، فكيف يمكن أن نفعل هذا بأنفسنا؟ ﴿بل نقذِف بالحق على الباطل فيدمَغه فإذا هو زاهق﴾.. أي أننا لا نبرح نمد الدنيا بما هو حق وحكمة لندمغ به الباطل، فيفرّ الباطل من أمام الحق دائمًا. فلو كنا قد خلقنا الكون دونما غاية فما الداعي أن ننـــزل الوحي إلى الناس أصلاً؟

أما قوله تعالى ﴿ولكم الويلُ مما تصِفون﴾.. فقد بين فيه أن الاستهزاء بآيات الله تعالى عمل شنيع وخطير جدًّا. ألا يجدون غير كلام الله تعالى للضحك والسخرية؟ فإن لم ينتهوا عن ذلك فسوف ينـــزل عليهم عذاب شديد.

وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

يستحسرون: استحسرَ: أعيا. ومنه في القرآن ﴿لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ أي لا يعيون منها (الأقرب).

يُنشِرون: أنشرَ اللهُ الميّتَ: أحياه (الأقرب). فمعنى ﴿يُنشِرون﴾ يُحيُون ويخلُقون.

التفسير: ينبّه الله تعالى هنا أن كل ما في السماوات والأرض هو مِلْكُه، فكيف تظنون، والحال هذه، أنه سيدمّر الناس، ولن يهيئ لهم أسباب الهدى؟ لا أحد في الدنيا يدمر بنفسه ما يملكه، فكيف تظنون أن يكون كل ما في السماوات والأرض ملكًا لله تعالى ومع ذلك لا يكترث لإصلاح عباده؟ كلا، بل إنه تعالى يبعث المأمورين من عنده لإصلاح عباده دائمًا. وإن الذين يدل عملهم على أنهم من المقربين لدى الله تعالى فإنهم لا يمتنعون عن عبادته ﷻ استكبارًا ولا يملّونها، بل يسبّحون الله تعالى ليل نهار بدون انقطاع. الحق أن هؤلاء المشركين أنفسهم أغبياء، كما ينسبون إلينا الغباء، حيث يصنعون الأصنام بأيديهم، ثم يأخذون في عبادتها، كما يظنون أن الله تعالى يخلق بيده خلقًا ثم يجعله ولدًا أو ندًّا له!

لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

يصِفون: وصَف الشيءَ: نعَته بما فيه (الأقرب).

التفسير: أي أفلا يدرون أنه لو كان في السماوات والأرض آلهة سوى الله تعالى لشملها الدمار، بمعنى لو كان في الكون آلهة عديدة لوُجدت فيه نواميس عديدة متعارضة تؤدي إلى دمار الكون، ولكن لا نجد في الدنيا إلا ناموسًا طبيعيًا واحدًا.

أتذكر جيدًا أنني حين كنت صغيرًا في سن الحادية والعشرين تقريبًا جاء أحد المشايخ من السند للقاء أستاذي المكرم حضرة المولوي نور الدين ﷺ الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام. وربما هو المولوي عبيد الله السندي الذي كان يزور قاديان كثيرًا. فعرض على حضرته ﷺ هذه الآية وقال فيها إشكال أرجوك أن تزيله. والإشكال الذي ذكره هو أن القرآن الكريم يعلن هنا أنه لو كان في السماء والأرض آلهة عديدة لشملهما الفساد، مع أن الإله إنما يطلق على من هو كامل القوى. من الممكن أن يتخاصم ملوك الدنيا فيما بينهم، ولكن كيف يمكن أن يتقاتل هؤلاء الآلهة المتعددة ما داموا كاملي القوى؟

فأجابه حضرة المولوي نور الدين ﷺ بعدة أجوبة، ولكن الشيخ السندي لم يقتنع، و لم يبرح يعترض ويناقش. إنني أتذكر جيدًا الغرفة التي دار فيها هذا النقاش، بل أتذكر جيدًا الجهات التي كانا يتوجهان إليها خلال النقاش، فكان أستاذي المكرم المولوي نور الدين ﷺ متجهًا نحو الشرق، بينما كان الشيخ السندي يواجه الجنوب. ولما طال النقاش قال الشيخ السندي إن هذا الاعتراض لا جواب عليه. فقال حضرة المولوي نور الدين ﷺ في حماس شديد: كيف تقول عني إني لا أستطيع الرد على هذا الاعتراض؟ حسنًا ناقِشْ هذا الصبي الذي هو تلميذي حتى تعرف مصيرك؟ وكان الشيخ السندي يعرف أني ابن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية. ورغم أنه كان ينتمي إلى الفرقة الديوبندية إلا أنه كان لفترة طويلة من مريدي بعض المتصوفة وأصحاب الزوايا، وكان يكنّ للصوفية احترامًا كبيرًا، لذلك قال إني لن أناقشه لأنه ابن حضرة الميرزا.

وإني لا أدري بماذا كنت سأجيبه آنذاك لو دار النقاش بيني وبينه. بيد أني أرى الآن أنه مما لا شك فيه أن الإله يجب أن يكون كامل القوى، ولكن كونه كامل القوى يؤكد أنه من المحال أن يكون هناك أكثر من إله في وقت واحد.

لقد حصل الحادث المذكور أعلاه في عام ١٩٠٩م. وفي عام ١٩١١م كنت في مصيف دلهوزي. وكانت الكنيسة قد بنت هناك فيلات مريحة من أجل القسيسين الأوروبيين. وكان القسيس ينغسون مقيمًا هناك. وهو نفس القسيس الذي توطدت المسيحية على يده في منطقة سيالكوت، وكان قد عيِّن فيما بعد في مكان بجنوب الهند، وكان قد جاء إلى دلهوزي لقضاء فصل الصيف. وكان هذا القسيس "المسنّ الشاب" يتجول هناك في الأسواق في كل مساء حاملاً منشورات ضد الإسلام يوزعها على المسلمين. لا شك أن المسلمين اليوم لا يعملون بدينهم، ولكنهم يبدون الحماس لدينهم بسرعة، خاصة غير المثقفين منهم. فتحمس المسلمون في مدينة دلهوزي وفي معسكر "بيلون" الواقع قريبًا من دلهوزي، وقالوا لا بد من عقد مناظرة بين هذا القسيس وأحد علماء المسلمين. وكان الإمام في جامع معسكر "بيلون" أحد المشايخ الكشميريين، وكان يعرف أنني موجود في دلهوزي. فلما ذهب إليه المسلمون قال لهم: لقد سمعت أن ابن حضرة الميرزا قد جاء هنا، فاذهبوا به للمناظرة، لأن القاديانيين يجيدون النقاش مع المسيحيين. ولم يكن عندي خبرة بمثل هذه المناظرات، ولكن لما جاءني وفد المسلمين لم أجد بدًّا من الإذعان لطلبهم، ورضيتُ بالمناظرة. فوصلنا إلى "الفيلا" التي يقيم فيها القسيس في صورة وفد مكون من بضعة أفراد. فبادءني القسيس بسؤاله: ما هي ديانتك؟ فألقى الله في قلبي فورًا أن القسيس إنما وجه هذا السؤال ليهرب من مواجهة أسئلتي، ويطعن في الإسلام. فقلت لـــه: ما لك ولديني؟ إنك إنما جئت هنا لنشر المسيحية، فعليك أن تشرح لي نظرية الآلهة الثلاثة، فلو نجحتَ في ذلك لتبعتُك أيًّا كان ديني. فبدأ في أول أمره يتحايل ويماطل، ولكنه لم يجد بدًّا من قبول اقتراحي في النهاية. فبدأت الحديث كالآتي:

أخبِرْني حضرة القسيس، هل الإله الآب كامل أم ناقص؟ فإذا كان ناقصًا فلا يمكن أن يكون إلهًا. وكذلك هل الروح القدس كامل أم ناقص؟ فإذا كان ناقصًا فلا يمكن أن يكون هو الآخر إلهًا. وكذلك هل كان الابن – الأقنوم الثالث – إلهًا كاملاً أم ناقصًا؟ فإذا كان ناقصًا فلا يمكن أن يكون أيضًا إلهًا. فاتفق القسيس معي على أقوالي هذه الثلاثة ؟

ثم سألته: هل كان الإله الآب يملك القدرة الكاملة على خلق السماوات والأرض أم كان بحاجة إلى مساعدة أحد؟ وبطبيعة الحال ما كان للقسيس أن يقول- بسبب ما قلت لـــه من قبل – أن الإله الآب كان بحاجة إلى مساعدة من أحد. ثم سألته: هل كان الروح القدس يملك القدرة الكاملة على خلق الكون كله أم كان بحاجة إلى مساعدة أحد؟ قال: كلا، إنه كان يملك القدرة كلها. ثم سألته: هل كان الإله الابن يملك القدرة الكاملة على خلق الكون كله أم كان بحاجة إلى مساعدة أحد؟ قال: لا، إنه كان يملك القدرة كلها. فقلت: إذًا، فإن المشكلة، يا حضرة القسيس، قد حُلّت تمامًا. قال: كيف؟ فأخذت قلم رصاص من على طاولته، ووضعتُه قريبًا منه، وقلت: حضرة القسيس، هل أنت قادر على رفع هذا القلم ونقلِه إلى مكان آخر؟ قال: طبعًا. قلت: هل أنا قادر على ذلك؟ قال: نعم. ثم أشرتُ إلى شخص آخر وقلت: هل هو قادر على ذلك؟ قال: نعم. قلت: إذا كان كل واحد من ثلاثتنا قادرًا على نقل القلم إلى مكان آخر، ومع ذلك لو بدأنا نصرخ ونقول: يا طباخ تعال هنا، ويا خادم تعال هنا، وإذا حضرا قلنا: هلمّا ننقل معًا هذا القلم إلى هناك، فماذا سيكون ظنهما بنا؟ ألا يعتبراننا مجانين؟ قال القسيس: ماذا تعني من ذلك؟ قلت: أرجوك أن تجيبني على سؤالي هذا فقط؟ قال: نعم، سيعدّاننا من المجانين. فقلت: ما دام كل واحد من الإله الآب والإله الابن والإله الروح القدس قادرًا بمفرده على خلق الكون، ومع ذلك يدعو بعضهم بعضًا للقيام بهذا العمل، أفلا نعدّ الإلهَ الذي يدعو الإلهين الآخرَين لمساعدته في هذا العمل مجنونًا، بل أفلا يعدّه هذان الإلهان المدعوان لهذا العمل مجنونًا؟ وكون المجنون إلهًا

محال. فإنه حينما يُعَدّ مجنونًا لن يعود إلهًا، أو أن مثل هؤلاء المجانين سيعيثون في الكون الفساد ويدمرونه نهائيًا.

هذا هو الجواب الذي كان جديرًا بأن يتلقاه ذلك الشيخ السندي. ولكنه رفض أن يناقشني آنذاك. والحق أنه لو كان هناك آلهة، أي ذوات كاملة القوى، ومع ذلك يديرون جميعًا الكون معًا في حين أن كل واحد منهم قادر بمفرده على إدارته، فهذا دليل على جنونهم، وبالتالي لا يعودون آلهة، أو لا بد من الاعتراف على الأقل بأن هؤلاء المجانين سيدمرون الكون.

إذاً فإن هذه الآية حق وصدقٌ، ولا اعتراض عليها. إذ الاعتراض عليها إنما يدل على منطقهم الناقص فحسب.

أما قوله تعالى ﴿فسبحان الله ربِّ العرش عما يصفون﴾ فقد بين الله تعالى فيه أن هؤلاء لو كان يعقلون حقًّا لوجدوا أن دليلنا السابق يبلغ من القوة بحيث لا يملكون إزاءه إلا الاعتراف بأن رب العرش، أي حاكم الكون، منـــزه عن كل عيب وأنه واحد لا شريك له ﷻ.

لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٤﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

ذِكر: الذِّكر: الثناء؛ الشرف؛ الكتاب فيه تفصيل الدين ووضعُ الملل. والذكر من القول: الصُّلْب المتينُ (الأقرب).

التفسير: فبما أن الله تعالى هو المالك الوحيد فلا يحق لأحد أن يحاسبه. وكل من سواه عرضة للسؤال والحساب أمام غيره، وهذا دليل على ضعفهم ونقصهم. واتخاذ مثل هؤلاء الذين هم ناقصو عقل وقوة آلهةً من دون الله يُعَدّ في حد ذاته

مهزلة لا تليق بالقبول. إن قولهم هذا مقبول بصورة واحدة فقط وهي أن يشهد الله على ذلك، ولكنهم لن يستطيعوا أن يقدموا شهادة من الله تعالى على ما يقولون.

ثم يقول الله تعالى انظروا إلى هذا القرآن، فإنه سبب شرف للمؤمنين بمحمد رسول الله ﷺ، كما أنه دليل على شرف الذين خلوا من قبله ﷺ. فلولا محمد رسول الله ﷺ وأتباعه ذوو الشرف الرفيع لما كان هناك دليل على شرف الأنبياء السابقين وأتباعهم. فإن القرآن الكريم أعلن ﴿وإنْ مِن أمة إلا خلا فيها نذير﴾(فاطر: ٢٥). ولم يقل القرآن كما قال المسيح عليه السلام بحسب الإنجيل: "جميع الذين أتوا قبلي سُرّاق ولصوص" (يوحنا ١٠: ٨). وذلك لأنه ما كان بوسع المسيح أن يشير إلى ميزة عمَلية وواضحة توجد فيه أو في حواريه كدليل على أفضليته على غيره، فلم يكن عنده سبيل لإثبات شرفه وشرف أتباعه إلا أن يعدّ موسى وإرميا وحزقيال وإلياس سرّاقًا ولصوصًا، ليظن الناس أن الأنبياء السابقين كانوا سراقًا ولصوصًا، ولكن عيسى وأصحابه ليسوا كذلك، لذا فهم أفضل من السابقين. أما محمد رسول الله ﷺ فإنه عوضًا عن أن يسمي الأنبياء السابقين سراقًا ولصوصًا قد عدّهم أصحاب الأخلاق السامية، واعترف أنهم كانوا من المقربين المحبوبين لدى الله تعالى؛ فكان لا بد للنبي ﷺ، والحال هذه، أن يثبت عمليًّا أنه أحسن منهم خُلقًا وأكثر منهم قربًا لدى الله تعالى، وإلا لما تحقق دعواه. فثبت أن الأسلوب الاستدلالي الذي اتبعه القرآن الكريم ليس أصعب فحسب، بل هو أفضل أيضًا. أما المسيحية فاتبعت طريقًا أسهل. والفرق بين الإنجيل والقرآن هو أن الإنجيل يقول إن المسيح أفضل من السراق، لأن الأنبياء السابقين كانوا لصوصًا، بينما يعلن القرآن أن محمدًا رسول الله ﷺ أفضل من جميع أحباء الله السابقين، وأحسن أسوة من جميع الذين قدموا أسوة مثالية. فالقرآن الكريم لا يدعي أن محمدًا رسول الله ﷺ سيد اللصوص، بل يدعي أنه ﷺ سيد المقربين المحبوبين لدى الله تعالى. وإن سيد المحبوبين لدى الله تعالى خير من سيد السارقين يقينًا، كما أن الذي يعدّ الأنبياء السابقين سراقًا ولصوصًا لا بد أن يكون أدنى درجة من الذي يعترف بفضلهم ويُثبت عمليًّا أفضليته عليهم. صلى الله عليه وسلم.

ثم يقول الله تعالى ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحقَّ فهم معرضون﴾.. أي أن قضية أفضلية القرآن والإسلام كانت واضحة تمامًا، ولكن الذين لا يسعون أن يعرفوا الحقيقة فهم يعرضون.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥

التفسير: أي، يا محمد، إن جميع الرسل الذين خلوا من قبلك كانوا بشرًا أيضًا، فليس في كونك بشرًا أي إهانة لك. وهؤلاء الرسل من قبلك لا يمكن إلا أن يكونوا بشرًا، إذ لا إله إلا الله وحده.

لقد تبين من هذه الآية أن المهمة المشتركة بين الأنبياء كلهم هي نشر التوحيد، سواء أُبعث نبي منهم في الهند التي كانت بؤرة الوثنية وعبادة الأصنام في يوم من الأيام، أو وُلد في مصر التي كان أهلها يعتبرون الإنسان إلهًا، أو ظهر في إيران التي كانت مركزًا لعبدة النار، أو جاء في "أُور" الكلدانيين التي كانت مكتظة بالأصنام، أو أتى في مكة المكرمة التي ملأ أهلها حتى بيت الله بالأوثان. بيد أنك لو قارنت بين حياة الأنبياء العظام وحياة رسولنا الكريم ﷺ لوجدته منقطع النظير في قضائه على الشرك وأيضًا فيما تحمله في سبيل نشر التوحيد من شدائد وقدمه من تضحيات. لقد كان التوحيد قد اندثر تمامًا في العصر الذي بُعث فيه الرسول ﷺ. فقد ورد حتى في كتب الهندوس أيضًا أن الفساد كان قد عم الدنيا كلها حينذاك (ستيارث بركاش، (أردو) ص ٤٣٤). كما جاء في كتب النصارى أيضًا أن الشرك كان شائعًا في كل مكان في ذلك العصر (حياة محمد لـــ "وليام موير"، المقدمة ص ٧). حتى قال المستشرقين أن السبب الحقيقي وراء انتشار الإسلام ورقيه إنما هو أن الأمة المسيحية نفسها كانت قد فسدت، وأن المسيحيين دخلوا في الإسلام نتيجة التوحيد الذي دعا إليه. وهذا ما يؤكده الزرادشتيون أيضًا بأن أتباع زرادشت كانوا قد انحرفوا عن التوحيد آنذاك، فأُعجبوا بالتوحيد الذي قدمه لهم المسلمون فدخلوا في

الإسلام. إذًا فإن كتب كل الديانات تؤكد أن الشرك كان منتشرًا في العالم كله في تلك الأيام، ولم يبق للتوحيد أثر في الدنيا. وبالرغم أن رسولنا الكريم ﷺ قد وُلد في ذلك العصر، وفي ذلك المكان الذي لم يعرف التوحيد تمامًا، وفي قوم لم يكن لهم أي دين – حيث كانوا ينكرون أن يكون الفيدا أو التوراة أو الزند أفستا من وحي الله تعالى – إلا أنه ﷺ قد علّم التوحيد بشكل كامل ورائع بحيث إن معارضيه أيضًا يعترفون اليوم بهذه الحقيقة. إن النبي ﷺ لم يدعُ العالم إلى الإيمان بالتوحيد فحسب، بل علّمهم أيضًا عمليًّا كيف يؤمنون به. إنه ﷺ لم ينههم عن الشرك فحسب، بل علّمهم فعلاً كيف يتجنبونه. ثم إنه ﷺ لم يدعُ إلى التوحيد فحسب، بل قدّم البراهين على التوحيد ثم قال للقوم: خذوا هذا التوحيد. إنه ﷺ لم يكتف بقوله للناس لا تشركوا، بل كرّه إليهم الشركَ بكشف شناعة الشرك بالأدلة والبراهين.

لقد فنّد الله تعالى في القرآن الكريم الشركَ بأسلوب بلغ من اللطافة والشفافية الغايةَ، فقال ﴿قُلْ هو الله أحد * اللهُ الصمدُ * لم يلد ولم يولد * ويكن لـــه كفوًا أحدٌ﴾. فقد ذكر الله تعالى في هذه السورة القصيرة التي تسمى سورة الإخلاص أربع أنواع للشرك وذكَر الردَّ عليها. فقال تعالى إنكم في أفكار شتى حول وجود البارئ تعالى، وتخترعون نظريات متنوعة، وتقدمون فلسفات مختلفة وأقوالاً عديدة، وتتصورون عن الله تعالى تصورات مختلفة. في حين أن النقطة المركزية للأمر الذي هو الأمر اليقين عن الله تعالى إنما هي أن ذات البارئ واحد أحد من كل النواحي. فإنه تعالى ليس الحلقة الأولى لأحد، ولا الطرف الأخير لأحد. إنه لا يشبه أحدًا، ولا أحد يشبهه. لذا فلو جعلتم أحدًا مماثلاً لله تعالى لكنتم من المعتدين على وحدانيته ﷻ.

ثم من أنواع الشرك أيضًا اعتبار أحد شريكًا مع الله تعالى من حيث الصفات، وقد رد الله على ذلك بقوله ﴿الله الصمدُ﴾، موضحًا أن الصمدية لا توجد إلا في ذات البارئ تعالى، فلن ينفع الابتعادُ عن بابه أحدًا. إن كل من يسد حاجتكم أيضًا محتاج إلي. فلمَ تفرّون وراء الكأس تاركين النبع.

ثم يقول تعالى ﴿لم يلد و لم يولَد﴾.. أي تذكروا أيضًا أن الله تعالى موجود منذ الأزل وسيظل موجودًا إلى الأبد. إنه لم يلد أحدًا حتى يأخذ ابنُه مكانه، كما ليس لـــه أب قد ورِث منه قواه. وبتعبير آخر، إن الله تعالى كان صمدًا من قبل، وهو صمد الآن، وسيظل صمدًا في المستقبل أيضًا؛ فبه استعينوا دائمًا.

ثم يقول تعالى ﴿و لم يكنْ لـــه كُفُوًا أحدٌ﴾.. بمعنى ليس بوسع أي مخلوق أن يصبح كفوًا أي شريكًا لله تعالى. إن الله تعالى عظيم ورفيع بحيث إن الإنسان مهما علا درجة سيظل على الدوام عبدًا لله ومحتاجًا إليه ﷻ.

هذا هو التوحيد الذي يقدمه الإسلام، والذي بدونه يستحيل أن يتقدس الإنسان ويتطهر في رأي الإسلام.

ويقول الله تعالى في مكان آخر في القرآن مركّزًا على التوحيد: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ لـــه ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفَع عنده إلا بإذنه يعلَم ما بين أيديهم وما خلفَهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسِع كرسيُّه السماواتِ والأرضَ ولا يَؤُوده حفظُهما وهو العليُّ العظيم﴾(البقرة: ٢٥٦).

لقد بين الله تعالى هنا أن لا معبود سواه. إنه تعالى بحد ذاته حي على الدوام، كما أنه هو المحافظ على حياة ما سواه.

﴿لا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ﴾.. أي لا يصيبه وسنٌ ولا نوم، بمعنى أنه لا انقطاعَ ولا تعطُّلَ في أفعاله أبدًا.

﴿لـــه ما في السماوات وما في الأرض﴾.. أي هو المالك المتصرف في كل ما هو في الكون.

﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾.. أي لا شك أنه تعالى يستجيب الدعاء، ولكن لا يظنن أحد أن بوسعه أن يفرض رأيه على الله تعالى. إذا سمح الله بنفسه لأحد بالشفاعة لغيره فيمكنه أن يسأل الله تعالى شيئًا وإلا فلا.

﴿يعلَم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾.. أي عنده علمُ ما كان وما يكون. وهذا يعني أن التوحيد يستلزم العلمَ الكامل، إذ لا يكون التصرف الكامل بدون العلم الكامل. فلا بد إذًا من الإيمان بأن الله تعالى عنده العلم الكامل.

﴿ولا يحيطون بشيء مِن علمه إلا بما شاء﴾.. أي ليس بوسع إنسان أن يعلم شيئًا بدون ما يهبه الله تعالى لـــه من علمه. فعلى الإنسان أن يدرك دائمًا أن كل ما يتيسر له إنما يتيسر من عند الله تعالى.

﴿وسِع كرسيُّه السماواتِ والأرضَ ولا يؤوده حفظُهما﴾.. أي أن كل ذرة تتحرك في الكون إنما تتحركُ بتصرف الله تعالى. ولا يحدث تعطلٌ في حفظه للسماوات والأرض، بل تستمر حمايته لهما كل حين.

﴿وهو العليّ العظيم﴾.. أي بالرغم من أن قدرته تتجلى في كل ذرة في الكون إلا أنه يبلغ من العلو بحيث لا يستطيع أحد أن يدرك كُنْهَه وحقيقته ﷻ.

ولكنه تعالى العظيم أيضًا.. بمعنى أنه جليٌّ من خلاله قدرته بحيث إن كل من يسعى أن يجده يحظى بوصاله ﷻ.

وباختصار إن الرسول الكريم ﷺ أخبر الدنيا بأن التوحيد الكامل هو أن يتم الاتحاد والوصال بالله تعالى بشكل تام. وإذا حظي أحد بوصال الله تعالى أمكن القول إنه قد حقق غاية خلقه.

هذا هو التوحيد الذي قدّمه الرسول ﷺ، مبينًا أن فلاحكم إنما هو أن تحظوا بوصال الله تعالى في هذه الدنيا، وأن لا يقع بصركم إلا على الله تعالى. لقد رفض أهل الدنيا رسالته هذه، وقاوموه بشدة. لقد أذاقوه أشد ألوان الأذى، ووضعوا في طريقه العراقيل الكبرى، ولكنه ﷺ قد تلقى كل مصيبة في سبيل إعلاء اسم الله الواحد الأحد بترحاب، وتحمل كل أذى بابتسامة، ولم يلجأ إلى المداهنة أو النفاق حتى في أحلك الظروف. ففي غزوة أحد لما انقلب نصر المسلمين إلى الهزيمة من جراء خطأ بعض منهم، وشتّتهم الكفار بشن هجوم مفاجئ مِن خلفهم، حتى إن الرسول ﷺ نفسه سقط في حفرة لشدة هجوم العدو، وشاع بين القوم أنه قد استُشهد. فضاقت الأرض والسماوات على المسلمين بما رحبت، ولكنهم علموا

بعد قليل أن رسول الله ﷺ حيٌّ. فأخرجه بعض الصحابة من تحت جثث الشهداء، وأخذوا يتجمعون حوله كلما عرفوا بحقيقة الأمر. ولكنهم كانوا قليلين جدًّا، فأخذهم الرسول ﷺ إلى سفح الجبل. عندها نادى أبو سفيان المسلمين في غطرسة وكبرياء وقال أين محمد (ﷺ)، أيها المسلمون؟ ها قد قتلناه. فهمّ الصحابة بالرد عليه، ولكن النبي ﷺ منعهم من ذلك. فنادى أبو سفيان وقال: أين أبو بكر؟ فأراد الصحابة أن يردوا عليه، ولكن النبي ﷺ نهاهم أيضًا. فقال أبو سفيان في ذروة حماسه: أين عمر؟ فهمّ عمرُ بأن يرد عليه قائلا: ها أنا موجود هنا لأحزّ رأسك، ولكن النبي ﷺ قال لـــه: لا تتكلم. والواقع أن أبا سفيان كان يريد بذلك أن يتأكد من موت هؤلاء، كما تشاع في هذا العصر أيضًا في الجرائد أخبار أيام الحرب بهدف الاستطلاع فقط. فينشرون مثلاً بأن القائد الفلاني قد وقع أسيرًا في أيديهم، أو أن السفينة الفلانية قد أُغرقت. ولكن الحكومة الأخرى تلزم الصمت ولا تفنّد هذه الأخبار حتى لا يطلع الخصم على المعلومات الحقيقية. وكان هذا هو هدف أبو سفيان برفع هذه الهتافات، ولكنه لما لم يتلق أي رد من قبل المسلمين ظن أن هؤلاء قد قُتلوا، فرفع هتافه الوثني من فورة الحماس فقال: اُعْلُ هُبَلُ، اُعْلُ هُبَلُ. أي العظمة لصنمنا "هُبَلُ"، الذي ألحقَ الهزيمة بالمسلمين. وبما أن النبي ﷺ كان قد نهى الصحابة مرارًا عن الرد فلزموا الصمت هذه المرة أيضًا، فقال لهم النبي ﷺ في حماس شديد: لم لا تردّون عليه؟ قالوا: يا رسول الله، بماذا نردّ عليه؟ قال قُولوا: الله أعلى وأجلّ. أي ما هي قيمة صنمك هُبَل؟ إن الله هو الأعلى والأقوى من كل شيء. (البخاري، كتاب المغازي، ودلائل النبوة للبيهقي، المجلد ٣، ذكرُ قوله تعالى: ولقد صدقَكم الله وعدَه).

فترى كيف أن الرسول ﷺ سكت على إعلان العدو بموته وموت صحابته، ولكن عندما مس الأمر بتوحيد الله تعالى فلم يفكر ﷺ أنه وأصحابه قلة وأن العدو قد يصيبه بضرر، بل أمر أصحابه بأن يردّوا على هتافهم ويقولوا إن صنمك هبل لا يساوي شيئًا إزاء الله تعالى.

ثم فكِّرْ في حادث آخر حين حضر كبراء القوم أبا طالب وقالوا لـــه عليك أن تكفّ ابن أخيك من عيب آلهتنا وإلا حرمناك من الرياسة. فدعا أبو طالب النبيَّ ﷺ ورجاه أن يليّن موقفه تجاه أصنامهم، ولكنه ﷺ قال يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري لما امتنعت عن إعلان التوحيد. يا عم، إنْ كان قومك أعزّ عليك فاتركني إن شئتَ وكنْ معهم، فإن الله يكفيني. (السيرة النبوية لابن هشام: المجلد الأول، استمرار رسول الله ﷺ في دعوته)

قصارى القول إن كل حدث من حياة النبي ﷺ لبرهان ساطع على أنه لم يكن في قلبه أي أمنية إلا أن ينمحي الشرك وينتشر التوحيد في العالم كله.

ثم ورد في الحديث أنه لما اقترب أجله ﷺ كان يتقلب يمينًا وشمالاً في قلق اضطراب ويقول: "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" (البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ). هذه آخر وصية أوصى بها النبي ﷺ أمته، حذرهم بكلمات صريحة: ألا تنسوا أبدًا أني لست إلا بشرًا، فلا تعتبروا قبري أكثر من أي قبر آخر. دَعُوا أمم الأنبياء الآخرين يسجدون لقبورهم ويقدمون عليها القرابين، أما أنتم فلا تسجدوا إلا على عتبة الله الواحد الأحد، واتخذوه هو ملجأ ومأوى لكم.

ثم إن آخر الكلمات التي كانت على لسان محمد رسول الله ﷺ وهو في غرغرة الموت إنما هي قوله "إلى الرفيق الأعلى، إلى الرفيق الأعلى" (المرجع السابق).. أي أنني ذاهب إلى رفيقي الكريم المستوي على العرش الأعلى. هذا آخر ما تلفظ به النبي ﷺ حيث فارقت روحه جسده الأطهر بعد ذلك، فلحق ربَّه ﷻ.

إذًا فإن النبي ﷺ قد جلى توحيد البارئ وجلاله عند كل خطوة وعند كل نفَس، وبرهن على حبه وعشقه لله تعالى، بما لا نجد له نظيرًا في حياة أي نبي في العالم أبدًا.

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

سبحانه: "سبحان الله".. أي أبرّئ اللهَ من السُّوء براءةً (الأقرب). فقوله تعالى ﴿سبحانه﴾ يعني أني أبرئ الله تعالى من أن يتخذ ولدًا.

التفسير: يخبر الله هنا أن هؤلاء يكذبون حين يقولون أن الرحمن قد اتخذ لـــه ولدًا. فتَدبَّروا في أحوال الأنبياء السابقين جميعًا فستجدون أنهم لم يقولوا إلا إنما نحن بشر، والفرق الوحيد أن الله تعالى قد وهب لنا العزة. فإن المسيح عليه السلام الذي اتُّخذ ابنًا لله تعالى كان يسمي نفسه دائمًا ابن الإنسان (متى ١٢: ٨). فإذا كان ابن الله حقًّا، ومع ذلك كان يسمي نفسه ابن الإنسان، أفلا يعني ذلك- والعياذ بالله - أنه كان ينسب نفسه إلى غير أبيه؟ فما أشنعها تهمةً يرمي بها المسيحيون عبدًا من عباد الله المكرمين.

لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

لا يسبقونه: سبَقه: تقدَّمَه وجازَه وخلّفه (الأقرب).

التفسير: أي أن عباد الله الأبرار لا يتفوهون بما لم يقل لـــهم ربهم، ولا يبرحون مطيعين لـــه على الدوام. فكيف يمكن، والحال هذه، أن يكونوا آلهة؟

يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

مشفقون: أشفقَ الشيءَ: خافَ وحاذَرَ (الأقرب).

التفسير: أي أن الله تعالى مطلع على أحوال عباده كلها. إنه تعالى يعلم ما قد فعلوا وما لم يفعلوا أيضًا، وأنهم لا حق لهم بالشفاعة إلا بشرط، وإنما تتم الشفاعة في حق من يأذن لـــه الله تعالى. هكذا فالغفران يظل في يد الله على كل حال. وقد ورد في العهد القديم أيضًا: "إذا أخطأ إنسان إلى إنسان يدينه اللهُ، فإن أخطأ إنسان إلى الرب فمن يصلّي* من أجله." (صموئيل الأول ٢: ٢٥).

كذلك ورد في مكان آخر: "وأنت فلا تصلِّ * لأجل هذا الشعب، ولا ترفع لأجلهم دعاءً ولا صلاةً، ولا تلحّ عليّ، لأني لا أسمعك." (إرمياء ٧ :١٦)

فثبت أن الغفران ليس بيد إنسان، بل هو بيد الله تعالى وحده.

وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

التفسير: يبين الله تعالى هنا أن ادعاء الإنسان بكونه إلهًا بيّنُ البطلان، ولذلك لا يعاقَب مدعي الألوهية في الدنيا بل يعاقب في الآخرة، في حين أن المفتري أو المكذب ينال عقابه في هذه الدنيا نفسها. ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾.. أي أننا نعاقب الذين يرتكبون ظلم ادعاء الألوهية في الآخرة.

هذه الآية تمثّل ردًّا على الذين يقولون إن فلانًا كان يدعي الألوهية فلمَ لم يتعرض لعقاب الله في هذه الدنيا؟ ذلك لأن الله تعالى قد وعد بعقاب من يدعي النبوة كذبًا وافتراء في هذه الدنيا. قال الله تعالى ﴿ولو تَقوَّلَ علينا بعضَ الأقاويلِ * لأخذْنا منه باليمين * ثم لقطَعْنا منه الوَتينَ﴾(الحاقّة: ٤٥-٤٧).. أي أنه حتى هذا الرسول لو افترى علينا، وعزا إلينا قولاً اختلقه من عنده، لأخذناه من يده اليمنى ولقطعنا شريان حياته.. أي لدمرناه تدميرًا. أما مدعي الألوهية فيقول الله تعالى

---

* ورد هنا في الطبعة الأردية ما تعريبه: "فمَن يشفع لـــه" *(المترجم)*.

* ورد هنا في الطبعة الأردية ما تعريبه: "لا تشفع" *(المترجم)*.

بشأنه ﴿فذلك نجزيه جهنّمَ﴾.. أي لا حاجة لعقابه في هذه الدنيا ، وإنما نلقيه في الجحيم في الآخرة. والحكمة في ذلك أن المتنبئ الكذاب يكون إنسانًا مثل الأنبياء الصادقين، ومن الممكن أن يشتبه أمره على الناس فيظنوا أنه صادق، لذا فمسّت الحاجة لعقابه على الفور لينكشف الحق على الناس. أما مدعي الألوهية فيأكل ويشرب وينام، وكل هذه الأمور منافية للألوهية، فلا ينخدع من ادعائه إلا الأحمق الغبي جدًّا؛ وبالتالي لا داعي لعقاب هذا المدعي في الدنيا كشفًا لخداعه وزيفه، وإنما يكفيه العقاب في الآخرة. ومن أجل ذلك نجد أن "بهاء الله" وغيره ممن ادّعوا الألوهية لم ينالوا العقاب في هذه الدنيا، بل سيعاقَبون في الآخرة، لأن دعواهم بالألوهية باطل بالبداهة.

هناك حكاية من قبيل الطرائف فحسب، غير أني أسجلها فيما يلي إذ تنكشف بها الحقيقة تمامًا.

يحكى أن أحد الدراويش الفقراء ادعى الألوهية، وجمع حوله بعض المريدين الذين كانوا يلتفّون حوله كل حين. وكان هؤلاء يذهبون إلى المدينة بالتناوب للتسول، ثم يرجعون ويتمتعون مع إلههم بما لذ وطاب من الطعام. وكان هناك في جوارهم فلاح مؤمن، فكان يستشيط من هذا الإله غضبًا، ولكنه كان لا يستطيع أن يضره لوجود المريدين حوله. فلم يزل يتحين الفرصة دائمًا، حتى وجدها ذات يوم ربما فكر المريدون أن يذهبوا بعيدًا فذهبوا جميعًا تاركين إلههم وحيدًا وراءهم. فدخل الفلاح على الدرويش وجلس أمامه بكل أدب. ثم هبّ فجأة وأخذه من عنقه، ثم لطمه بشدة وقال: ألست أنت الذي أمات أبي؟ وها قد وقعت اليوم في قبضتي. ثم وجّه إليه صفعة أخرى قائلاً: ألست أنت الذي أمات أمي؟ ثم لطمه لطمة ثالثة قوية وقال: ألست أنت الذي أمات ابني فلانًا؟ ثم لطمه أيضًا وقال: ألست أنت الذي أمات ابني الآخر أيضًا؟ فلم يزل الفلاح يذكر أقاربه الموتى ويضرب الدرويش ويوجه إليه في كل مرة صفعات قوية لها دويّ، ويقول كنت في انتظارك منذ عشرين سنة، ووقعت اليوم في قبضتي، فلن أخلي سبيلك أبدًا. وأخيرًا

خر الدرويش على قدمي الفلاح من شدة الخوف، وقال: ها إني أتوب أمامك، فإني لست بإله.

فترى كيف افتُضح مدعي الألوهية بسرعة. ولكنه لو كان مدعي النبوة كذبًا، لأجاب للفلاح عند كل لطمة: إنما أنا رسول بشر، فأنَّى لي أن أُهلك أقاربك؟ إنما أهلكهم الله تعالى. بل لربما قال له: إن الأنبياء السابقين أيضًا قد أُوذوا على أيدي الناس من قبل، وإنك بإيذائي إنما تُؤكد صدق ادعائي.

فالحق أن الله تعالى هو الذي يكشف كذب المتنبئ الكذاب، فيُهلَك بالآيات السماوية بسرعة، أما مدعي الألوهية فلا داعي لإهلاكه بآيات السماء، لأنه كلما أكل وشرب تبين أنه ليس بإله. وكلما نام أو ذهب ليتبول ويتغوط تبين أنه ليس بإله. وحين يتزوج وينجب الأولاد ثبت أنه ليس بإله. ولن يؤمن بألوهيته في زمنه إلا الأحمق أو الحمار كما فعل أتباعُ "بهاء الله". أما بعد موته فيُفتضح من خلال تعليمه أو على يد المأمور الذي يُبعث من عند الله تعالى، مثلما حصل بالمسيح عليه السلام حيث إن أقواله وكذلك تاريخ حياته تبطل ألوهيته.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

رَتْقًا: رتَقه رَتْقًا: سدَّه وأغلقَه ضدُّ فتَقه (الأقرب).

والرتق: الضمُّ والالتحامُ، قال تعالى ﴿كانتا رَتْقًا ففتَقْناهما﴾: منضمّتَينِ. (المفردات)

ففتَقْناهما: فتَق الشيءَ: شقَّه، وهو ضدُّ رَتَقَه. وفتَق الثوبَ: نقَض خياطتَه حتى فصَل بعضَه من بعض (الأقرب).

التفسير: أي ألا يعلم الكافرون أن السماوات والأرض كانتا ملتحمتين بعضهما مع بعض، فشققناهما وفصلنا الواحد عن الآخر.

ولقد بين الله تعالى هنا حقيقة لم يكن الناس يعلمونها قبل هذا القرن، وهي أن كل كرة فلكية تتكون كالآتي: تتجمع كومة هائلة من الذرات في الفضاء، ثم تتقلص شيئًا فشيئًا، وعندما تنكمش الذرات في هذه الكومة أكثر تأخذ في الدوران، فتنفصل بعض أجزائها من أطرافها وتسقط بعيدًا، وهكذا تتكون النظم الفلكية التي منها نظامنا الشمسي الذي تقع فيه كرتنا الأرضية.

إن النظريات التي قدمها العلماء حتى اليوم حول تكوُّن النظام الشمسي كلها تُجمع تقريبًا على أن كرتنا الأرضية كانت قبل شكلها الحالي جزءًا من الشمس أو من كرة مماثلة للشمس. إن النظرية الأخيرة التي قدمها "فريد هامل" (من جامعة كيمبرج) تقول إن تلك الكرة المماثلة للشمس كانت زميلة لها، وعندما انفجرت هذه الكرة تشكلت كواكبنا، حتى أخذت أرضُنا شكلها الحالي المنفصل. ثم تولد في الأرض بخار الماء، ثم من الماء وُجدت الحياة.

(The Nature of the Universe p.69-93 & The University Surveyed p. 94-109)

فالله تعالى يشير هنا إلى هذه الحقائق نفسها ويقول هلا يؤمنون رغم رؤية هذه الظاهرة؟ عليهم أن يفكروا لِمَ تستمر عملية الخلق هذه مرة بعد أخرى؟ لماذا ينـــزل الماء من السحب لخلق الحياة؟ إن تكرار عملية الخلق في الكون ونـــزول الماء من السحب وظهور الحياة منه، كل ذلك يشكل دليلاً على أن هذا الكون لم يُخلق بدون غاية، بل خُلق لهدف عظيم، ولتحقيق تلك الغاية لا بد أيضًا من نـــزول الماء الروحاني من السماء، لكي يتزود به الناس من كل الشرائح لاستمرار حياتهم الروحانية.

وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

رواسي: الرواسي: الجبالُ الثوابتُ الرواسخُ (الأقرب).

تميد: مادَ الشيءُ يميد: تحرّكَ وزاغَ. ومادت به الأرضُ: دارتْ (الأقرب).

والمَيد: اضطراب الشيءِ العظيم كاضطراب الأرض. ومادني يميدني أي أطعمَني. (المفردات)

فجاجًا: جمعُ الفَجِّ، وهو الطريق الواسع الواضح بين جبلين (الأقرب).

التفسير: أي لقد جعلنا في الأرض جبالاً لكي لا تضطرب بالناس وتُدمَّر. بمعنى أن الهدف من خلق الجبال أن تظل الأرض متينة ثابتة على توازنها. ذلك أن علم طبقات الأرض تؤكد أن الأرض لا تزال ساخنة من داخلها، وإن كانت الآن أقل حرارة مما كانت عليه في بداية خلقها. إن حرارة الأرض عندما أذابت ما بداخلها من الصخور نتيجة شتى التقلبات تولدت في باطن الأرض غازات كثيرة حاولت الخروج إلى سطح الأرض نتيجة الضغط الداخلي، مما أدى إلى الزلازل وانفجار البراكين وتكوُّن الجبال. كما أن توازن القشرة الأرضية أيضًا يلعب دورًا في تكوُّن الجبال، وهكذا فإن الجبال تسبب في توازن سطح الأرض أيضًا، وتحُول دون أن تتسبب التقلبات العادية الحاصلة داخل الأرض في إحداث تغيُّر هائل فوق سطح الأرض، اللهم إلا التغيرات الاستثنائية التي قد تقع على الأرض كالكارثة. ووقوع مثل هذه التغيرات الاستثنائية ثابت من تاريخ كرتنا الظاهر من خلال الآثار الموجودة على سطحها.

إذًا فالجبال تحمي الأرض من الاضطراب والزلازل، كما أن بعضًا منها يكشف لنا، في شكل براكين، منظرًا للقُوى العاملة في باطن الأرض.

(Marvels and Mysteries of science: crust of the Earth & Encyclopeadia Britanica; geology)

بذكر الجبال المادية ينبّهنا الله تعالى إلى أن الحرارة المحبوسة داخل العالم الروحاني أيضًا تجيش وتأتي على الدنيا بالدمار كما تدمر البراكين المادية، فنطفئ هذه النار بالماء الروحاني، فتظهر جبال ذوات خمائل خضراء.. أي أولياء الله تعالى.

ثم يقول الله تعالى ﴿وجعلْنا فيها فِجاجًا سبلاً لعلهم يهتدون﴾.. أي أننا جعلنا بين هذه الجبال طرقًا واسعة لكي يسير فيها الناس ويجلبوا شتى المنافع. ويتضح من

التاريخ القديم أن الجيوش قد انتقلت دائمًا عبر الطرق الجبلية. ذلك لأن معرفة الطرق في السهول صعب، ولكن معرفة الوديان والطرق التي خلقتها الطبيعة بين الجبال أمر سهل، ولذلك تتنقل الشعوب النائية عبر تلك الطرق بسهولة من أرض إلى أرض.

ينبّهنا الله تعالى هنا إلى أنكم كما ترون هذا المنظر في العالم المادي، كذلك يسافر الناس في العالم الروحاني مهتدين بالجبال الروحانية، وهكذا فإن العالم المادي والعالم الروحاني كلاهما جاريان جبنًا إلى جنب.

وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٣﴾

التفسير: أي كما أن أجرام السماء تقوم من بعيد بحماية النظام الشمسي، كذلك فإن الذين ينـــزل عليهم الماء الروحاني من السماء يقومون بحماية النظام الروحاني، ومع ذلك لا يبالي الناس بذلك.

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

فَلَك: ليكن معلومًا أن الفَلَك غير السماء. الفَلك في الحقيقة اسم لسعة النظام الشمسي، أي ذلك الفضاء الشاسع الذي تدور فيه أجرام النظام الشمسي. فقد ورد في أقرب الموارد: الفَلَك: مدارُ النجوم. وورد في المفردات: الفلَك مجرى الكواكب.

يسبَحون: السَّبْح: المَرُّ السريعُ في الماء والهواء (الأقرب). فقوله تعالى ﴿كلٌّ في فَلَكٍ يسبَحون﴾.. أي كل واحد من هذه الأجرام يمر في مداره بسرعة.

الخُلد: الخلود هو تَبرِّي الشيءِ من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها. وكل ما يتباطأ عنه التغييرُ والفسادُ تصفه العربُ بالخلود، كقولهم للأثافي خَوالدُ، وذلك لطُولِ مُكْثِها لا لدوام بقائها. (المفردات)

التفسير: أي أن الليل والنهار والشمس والقمر كلها من خلق الله تعالى، وقد خُلق كل واحد منها لهدف وغاية. فالليل والنهار والشمس والقمر كل واحد منها يسد بعض حاجات الإنسان. وأن الشمس والقمر كليهما يجريان في مسار محدد.. أي أن الإنسان سيظل بحاجة إلى الليل والنهار على الدوام، وسيتناوب الليل والنهار من خلال الشمس والقمر دائمًا. وبالمثل ستظهر الشمس الروحانية والقمر الروحاني دائمًا. إذا ماتت الشمس الروحانية طلع القمر الروحاني.

ثم يخاطب الله الشمس الروحانية، أي محمدًا رسول الله، ويقول: ما دمتَ أنت ستموت هل سيظلّ الآخرون أحياءً ؟ كلا، بل كل إنسان لا بد لـــه من أن يذوق طعم الآخرة. بيد أن ربك الذي يميت لقادر على أن يخلق قمرًا روحانيًّا، فأين المجال لليأس للإسلام؟

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

التفسير: أي أن كل إنسان يأتي إلى هذه الدنيا قد ألزم الله به الموتَ، ولا أحد يوهب الحياة بدون حدود.

ثم يقول الله تعالى ﴿ونبلوكم بالشرّ والخير فتنةً﴾.. أي نختبركم بساعات النحوسة وساعات البركة. بمعنى أن من سنة الله تعالى أن يبتلي الناس بالخير تارة، وبالشر تارة أخرى.. أي يبعث الله أنبياءه حينًا فيتيح للناس فرصة ليترقوا ويزدهروا بإذعانهم وطاعتهم لأنبيائهم، وأما في فترة الظلام حين ينقضي زمان طويل على بعثة الأنبياء فيتيح الله للناس الفرصة لكي يُعمل أولو الألباب والرؤية البعيدة منهم عقولهم، فيتبعوا التعليم الصحيح الموافق للفطرة، ساعين للحفاظ على سبيل الأنبياء بدلاً من أن ينجرفوا في تيار الشر. هذان هما الطريقان اللذان يتم بهما اختبار الناس

باستمرار، ومشيرًا إلى سنته المستمرة هذه يقول الله تعالى إن القمر الروحاني يختفي ليضرب الظلام بأطنابه على العالم، ليطلع بعد ذلك قمر روحاني آخر.

ثم قال الله تعالى ﴿وإلينا تُرجعون﴾.. أي أن هدف كل قمر إنما هو أن يرجع بالناس إلى الله تعالى ثانية.

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

هُزُوًا: هزأ منه هزءًا: سخر منه (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى لنبيه ﷺ إن الكافرين يسخرون منك دائمًا، ويقولون أهذا الذي ينبئ بهلاك آلهتكم؟

إنهم لا يرون أنهم يحاولون محو ذكر الله الرحمن، بينما يسعى محمد رسول الله ﷺ للقضاء على المخلوقات التي اتخذها هؤلاء آلهة من دون الله تعالى، فهل في ذلك ما يدعو إلى الاستهزاء؟ وبتعبير آخر، إنهم ينكرون بأنفسهم الإله الحق، ولكن محمدًا رسول الله ﷺ إذا عاب آلهتهم الباطلة فيبدءون بالسخرية منه قائلين كيف يتجاسر على أن يذكر آلهتنا بالاحتقار.

خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

التفسير: يبين الله تعالى هنا أن من دواعي احتقارهم لمحمد رسول الله أنهم يقولون لم لا ينـــزل العذاب بنا رغم معارضتنا له؟ فكأنهم يسخرون من محمد رسول الله ﷺ ويحتقرونه لتأخر العذاب عنهم، ويريدون أن ينـــزل بهم العذاب عاجلاً.

قال الله تعالى هنا ﴿خُلق الإنسان مِن عَجَلٍ﴾، ولكن العجل ليس شيئًا ماديًّا خُلق منه الإنسان، إنما هذا تعبير من التعابير العربية حيث يقال "خُلق من كذا"، ولا يراد بذلك أن الشيء المشار مادة معينة وقد خُلق هذا الشخص منها في الحقيقة، بل المعنى أن ذلك الأمر من طبع هذا الشخص.

وقد استخدم الله تعالى هذا التعبير في أماكن عديدة من القرآن فقال ﴿الله الذي خلَقكم مِن ضعفٍ ثم جعَل مِن بعد ضعف قوةً ثم جعَل مِن بعد قوة ضعفًا وشَيبةً﴾(الروم: ٥٥). فهل الضعف شيء مادي خُلق منه الإنسان؟ كلا، إنما المراد أنه ضعيف بفطرته. وبالفعل ترى أن الوليد يكون ضعيفًا جدًّا بفطرته، ثم يكتسب القوة بالتدريج، ولكنه حين يبلغ سن الشيخوخة يعود إليه الضعف ثانية، فلا تعمل قواه. فقوله تعالى ﴿خلَقكم من ضعف﴾ إشارة إلى ضعف قوى الوليد، وليس أنه يُخلق من مادة اسمها الضعف.

كذلك ورد في القرآن الكريم أن إبليس قال لله تعالى ﴿خلقتَني من نارٍ وخلقتَه من طين﴾(ص: ٧٧). والمراد أنك يا رب خلقتَني بطبع ناري وخلقتَ الإنسان بطبع طيني. بمعنى أنني أثور غضبًا إذا ما أمرني أحد بشيء، فلا يمكنني أن أطيع آدم في أي أمر.

وقد ورد هذا التعبير في لغتنا الأردية أيضًا، فيقال إن فلانًا نار، ولا يراد بذلك أن لهب النار تخرج من فمه، بل المعنى أنه يستشيط غضبًا إذا نصحه أحد. وفي اللغة الإنجليزية يقال Fire Brand أي شخص شرير مثير لنيران القلاقل في كل مكان. وهذا التعبير نفسه قد ورد هنا في قوله تعالى ﴿خُلق الإنسان من عجل﴾.. أي أن الإنسان مطبوع على الاستعجال والتسرع، حيث يود أن يتم كل شيء بعجلة، ولكن الله تعالى قد جعل لكل أمر موعدًا؛ لذلك قال تعالى بعد ذلك ﴿سأُرِيكم آياتي فلا تستعجلونِ﴾.. أي لِم تأخذون في تكذيب محمد بمجرد سماع أنبائه. فلا تستعجلوا، إذ سترون نتيجة تكذيبه عن قريب، وستتحقق أنباؤنا حتمًا.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾

التفسير: أي ولكن الكافرين لا يريدون أن يفهموا، بل لا يبرحون يقولون ائتنا بالعذاب كما وعدت إن كنت من الصادقين؟ فمتى سيأتي ذلك العذاب؟

لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

وجوههم: الوجوه جمع الوجه وهو: أولُ ما يبدو للناظر من البدن وفيه العينان والأنف والفم؛ ومستقبَلُ كلّ شيء؛ سيّدُ القوم؛ نَفْسُ الشيء؛ الجاهُ (الأقرب).

فتبهَتهم: بَهَته: أخَذه بغتةً، ومِنه ﴿تأتيهم بغتةً فتبهَتهم﴾ أي تغلِبهم وتحيّرهم (الأقرب).

يُنظَرون: أنظرَه: أمهلَه (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿ولا هم يُنظَرون﴾ أنهم لن يُعطَوا أي مهلة.

التفسير: الواقع أن الإنسان لا يعرف حقيقة العقاب قبل أن يحل به، وإن هؤلاء القوم هم الآخرون لا يدرون حقيقة ما سيحل بهم، ولكن العذاب عندما يأتي فلن يحيط بأدانيهم فحسب، بل سيشمل كبراءهم ومساعديهم أيضًا، ولن يبقى لهم من ناصر. عندها ستنكشف عليهم الحقيقة. إن ذلك العذاب سيفاجئهم وسيحيرهم، ولن يستطيعوا رده، كما لن يمهلهم الله تعالى.

لقد أخبر الله تعالى هنا أن الكافرين لن يستطيعوا دفع العذاب عن وجوههم ولا عن ظهورهم.. والمراد من ذلك أنهم لن يقدروا على رد العذاب القادم من أمامهم، ولا العذاب الذي سيحيط بهم من خلفهم. والمراد من العذاب القادم من الأمام

ذلك العذاب الذي تظهر علاماته وآثاره، أما العذاب الذي يأتيهم من ورائهم فهو ذلك العذاب الذي يحل بهم فجأة من حيث لا يدرون.

ويتضح من قول الله تعالى ﴿بل تأتيهم بغتةً فتبهَتهم فلا يستطيعون ردَّها ولا هم يُنظَرون﴾ أن العذاب المقدر لهؤلاء الكافرين سيأتي فجأة، أي أنه سيأتي من ورائهم فلن يعرفوا وقته ولا جهته.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

حاقَ: حاقَ به: أحاط به (الأقرب).

التفسير: أي أن سخريتهم منك ليست ببدع، بل لقد فُعل هذا بالرسل من قبلك، ولكن كانت عاقبة معارضيهم هي الوخيمة، وعليهم سقط وبال السخرية. فإذا لقي معارضوك هم الآخرون مصيرًا سيئًا لكان دليلاً على أنك رسولنا الحق، وأنهم هم الكاذبون.

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٣﴾

يكلؤ: كَلَأَه: حفظه وحرَسه (الأقرب).

التفسير: أي أن هناك صنوف الشدائد والمصائب تُخلق لكم بالليل والنهار، بعضها تخص الليل وبعضها تخص النهار، ولكن هناك مَن لا يبرح يدفع عنكم هذه المصائب ويحفظكم منها. فمن هذا الحامي إلا الرحمن؟

الحق أن هناك ما لا يحصى من الأوبئة والبلايا التي تُخلق وقت الليل، وهناك كثير منها تُخلق وقت النهار. إن هذه البلايا والآفات والأمراض وأنواع العذاب لا

يعلمها إلا العلماء المتخصصون في هذا المجال فقط، ولكنها تترك أثرها على عامة الناس الذين لا علم لهم بها، والذين لا يدرون أن هناك بلايا تتربص بهم. ومع ذلك تتهيأ من الغيب أسباب تدفع تلك البلايا عنهم. يقول الله تعالى إنما هو ربك الرحمن الذي يدفع عنكم هذه البلايا والآفات، ولكن هؤلاء القوم لا يتلقون من ذلك أي درس، بل لا ينفكّون يعارضون الحق. يقولون بأفواههم إن هذا المدعي كذاب لذا فنحن نعارضه، أما الأمر الواقع أنهم لا يرغبون في ذكر الله تعالى أصلاً، ويضيقون ذرعًا منه، فيكفرون بأنبيائه لكي يتفادوا من ذكر الله تعالى، ويفرّوا من تحمل المسؤوليات التي تُلقى على الذين يؤمنون.

فكل من عنده إلمام بسيط بالتاريخ يدرك أن السبب الأساسي لمعارضة الأنبياء إنما هو أنهم يريدون أن ينقلوا الناس من لهو الدنيا ولعبها إلى ذكر الله تعالى. وهذا هو السبب الحقيقي لكفر الناس بالرسول ﷺ أيضًا. فإنه ﷺ لم يأمرهم بما يخالف الفطرة الإنسانية أو يتنافى مع الأخلاق، كما أنه ﷺ لم يسألهم شيئًا لنفسه حتى يشقّ عليهم طاعته ﷺ.

أما من المنظور الروحاني فتلفت هذه الآية نظرنا إلى أنه كلما طلع قمر روحاني أو شمس روحانية أتى العذاب من عند الله تبيانًا لصدقه. فمن ذا الذي ينجيكم، أيها الناس، من عذاب الله سواء كان الوقت وقت قمر روحاني أو شمس روحانية؟

وقد بين بقوله تعالى ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أن السبب الحقيقي لحالتهم هذه إنما هو إعراضهم عن ذكر الله تعالى.

أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

التفسير: يحذر الله تعالى هنا الكافرين بأنكم تريدون الفرار من عبادتنا، ولكن حين يأتيكم العذاب جراء ذلك فلن ينجيكم منه أي إله باطل، بل إن آلهتكم الزائفة لن تقدر على إنقاذ نفسها منه، ولن تخلق لها نصيرًا.

بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

أطراف: جمع طَرَفٍ وهو: حرفُ الشيء ونهايتُه؛ الناحيةُ؛ الرجلُ الكريم (الأقرب).

التفسير: الواقع أنه عندما يطول عمر قوم يصيبهم مرض الكبرياء، دون أن يفكروا أنه هو الوقت الذي تتظافر فيه دواعي هلاكهم. والتاريخ شاهد على أن هذا ما حدث على الدوام. خذوا الإنجليز والفرنسيين مثلاً في الزمن الراهن، إذ قد انقلبت مملكتهم وبالاً عليهم بعد أن طال حكمهم، وصارت أجزاء إمبراطوريتهم أطواقَ الذل والخزي في أعناقهم. فبالرغم من المسافة الشاسعة بين الهند وإنجلترا قد حكم الإنجليز الهند حكمًا قويًّا، ولكن ما حصل في الأخير هو أن الهند صارت حجرًا في عنق الإنجليز بحسب بيان أدلى به السيد تشرشل إبان الحرب العالمية الأخيرة، حتى صرخ تشرشل لأصحابه قائلا: إذا كنتم تريدون إنقاذ إنجلترا فارموا بهذا الحجر بعيدًا. وقد أصبحت الآن مصر وملايا● أيضًا حجرين معلقين في عنق الإنجليز، وبعد قليل ستصبح نيوزيلندا وأستراليا وكندا كذلك. ومع ذلك لن تفارق إنجلترا كبرياؤها لمدة من الزمن، وسيظل الإنجليز يظنون أنهم هم الغالبون، بيد أن وحي الله تعالى سيكون هو الغالب في آخر المطاف.

إن دراسة التاريخ تبين لنا أن أكبر عاهة أصابت الأمم دائمًا إنما هي أن أي أمة إذا نالت القوة والنفوذ، سواء كان عمرها ستين أو مئة أو مئتين من السنين، ظنت أنها ستظل قوية هكذا، ولن تتغير أيامها أبدًا. ولذلك يعلن الله تعالى هنا ويقول صحيح أن محمدًا رسول الله ﷺ لم يحرز الانتصار الكامل بعد، ولكن أفلا يرون أن رقعة حكومة معارضيه بدأت الآن تتقلص، وأن مناطق نفوذها بدأت تنكمش من

● "ملايا" تسمى "ماليزيا" حاليا. (المترجم)

أطرافها؟ فهل يظنون، رغم رؤية ذلك، أنهم هم الغالبون في النهاية.. أي ما دام الإسلام في تزايد مستمر، وما دام هؤلاء في تناقص مستمر، فكيف يظنون أنهم سيغلبون؟

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

نفحة: النفحةُ من العذاب: القطعةُ (الأقرب).

القسط: العدل (الأقرب).

خردل: الخردل حَبٌّ صغير جدًّا أسودُ مقرِّحٌ، ومنه أبيضُ (الأقرب).

التفسير: أي، يا محمد، قل لـــهؤلاء إني لا أملك أي قوة، وإنما أنا إنسان ضعيف. لقد جاءني الوحي من الله بخبر عذابكم، وأنا أبلغكم إياه، فتصامّون، ولا تسمعون مهما أنذرتكم. ولكن حين يأتي العذاب فسيقول هؤلاء يا ويلنا إنا كنا ظالمين. ولكن لن ينفعهم الأسف عندها شيئًا. فبما أنهم كانوا يظلمون حين كانوا قادرين على الظلم، فما الجدوى من الندم حين فقدوا القدرة على الظلم؟ وسنضع موازين القسط والعدل يومئذ، لكي ينال كل مجرم جزاءه بقدر جريمته، ولن يُظلم أحد يومئذ شيئًا. ولو كان لأحد حسنة بقدر حبة الخردل فلا بد أن ينال جزاءه عليها أيضًا.

كم هي رائعة هذه الحقيقة التي يبينها القرآن الكريم هنا؟ كان أبو جهل عدوًّا لدودًا للإسلام، ولم ير أحد الخير الكامن فيه، ولكن لما جاء يوم حكم الله تعالى وفّقَ ابنَه للإسلام، فأصبح ابنه من كبار القوّاد المسلمين (الإصابة في تمييز الصحابة، تحت: عكرمة بن أبي جهل). وبالمثل كان أبو سفيان شديد العداء للإسلام، وكان الراءون في بادي الرأي يظنون أنه وعائلته سيتعرضون للعقاب دائمًا، ولكن كان فيه أيضًا خير خفي، ولما آن الأوان صار ابنه حاكمًا على نصف المملكة الإسلامية، وحكمت أسرتُه العالم الإسلامي كله قرابة قرن من الزمان، ثم بعد ذلك حكموا الأندلس لحوالي خمسة قرون. وهذا الجزاء لا يمكن أن يأتي إلا من عالِمِ الغيب ﷻ. أما لو كان الجزاء بيد الناس لسحقوا أبا جهل وأبا سفيان مع عائلتهما سحقًا.

هذا، وقول الله تعالى ﴿وإنْ كان مثقالَ حبةٍ من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ يرد أيضًا على النظرية القائلة أن جهنم غير منقطعة. ذلك لأن الله تعالى يعلن هنا أن أحدًا لو كان قد فعل حسنة أو سيئة بقدر حبة الخردل فلا بد أن يجزيه عليها. فإذا كان المرء يدخل الجحيم بسبب سيئاته ليبقى فيها إلى أبد الآبدين فمتى سينال جزاء حسناته؟ لذا فلا بد من انقطاع عذاب جهنم، ليُدخَل الجنةَ جزاءً على حسناته أيضًا.

إن من عقائد الآريين (الهندوس) أن الله تعالى يستبقي عند الحساب سيئة واحدة من سيئات كل روح، فيمنح الأرواح الطيبة النجاة أولاً، ثم يلقيها في سلسلة الولادات المختلفة عقابًا على تلك السيئة التي استبقاها. وكأن الله تعالى – عندهم– يعطي الروح الطيبة الجوائز أولاً، ثم يعاقبها بالعذاب حتى لا تتمكن الروح من النجاة الأبدية. ولكن الإسلام يعلن أن الله تعالى يذيق الإنسان العقاب أولاً، ثم يمنحه النجاة في آخر المطاف. وكل عاقل يستطيع أن يدرك من ذلك أن العقيدة الإسلامية هي التي تتلاءم مع الفطرة الصحيحة. أما استبقاء وإخفاء سيئة من سيئات الإنسان، ثم إلقاؤه في العذاب بسببها بسلب النعمة منه، فمثله كمثل ما يفعله المرابون الهندوس عندنا حيث يُقرض أحدهم شخصًا مالاً، ثم يسترد منه ماله إلا شيئًا منه لكي يأخذ منه ما تبقى مع الربا الذي يتضاعف عليه أضعافًا مضاعفة

في بضع سنين. إن هذا الحقد غير مقبول في أحد من البشر، فكيف إذا نُسب إلى الله تعالى. ولكن الإسلام يعلن أن الذي قد قُدر لـــه العقاب سيذوقه أوّلاً، ثم يكافَأ على حسناته، وأن هذه المكافأة ستستمر للأبد دونما انقطاع أو خلل. يقول الله تعالى في مكان آخر من القرآن الكريم عن الذين يدخلون جنته ﴿وما هم منها بمُخْرَجين﴾(الحجر: ٤٩). فثبت أن تعليم الإسلام يتلاءم مع العقل والفطرة، أما تعليم الديانة الآرية فيعرّض الله تعالى للظلم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾

شرح الكلمات:

الفرقان: كلُّ ما فُرِقَ به بين الحق والباطل؛ النصرُ؛ البرهانُ؛ الصبحُ (الأقرب).

التفسير: أي لقد أعطينا موسى وهارون كتابًا يميز بين الحق والباطل، ويهب النور، ويذكّر المتقين ربَّهم الذي يخشونه في الانفراد، وهم من مصيرهم مشفقون.

وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

التفسير: إن لفظ ﴿مبارَك﴾ من البِركة وهي الحفرة التي يجتمع فيها كل الماء من حولها. وقد سُمّي القرآن الكريم مبارَكًا لأنه الكتاب الذي قد جُمع فيه كل ما سبقه من حقائق سماوية وتعاليم عالية.

يقول الله تعالى إننا أنـــزلنا عليك هذا القرآن الذي يجمع في نفسه البركات كلها، ويذكّر الناس ربَّهم كما فعلت التوراة، ومع ذلك يرفضه الناس.

وبما أن الحديث هنا يدور حول القرآن الكريم فإن هذه الآية إذا كانت تحثّ المؤمنين على ذكر الله تعالى، فيمكن أيضًا أن تكون تحريضًا لهم على قراءة القرآن والعمل به أيضًا.